عُقدة سُليمان

رواية

د. محمد عزب

الكتـــــــاب: عقدة سليمان

المـــؤلـــــف: محمد عزب

تصميم الغــــلاف: أ/ مروة فتحي

المراجعة اللغوية: أ/ محمد عبدالغفار

رقـــم الإيـــداع: 2015 / 2666

الترقيــم الدولــي: 0 - 015 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني:info@ibda3-tp.com

عُقدة سُليمان

رواية

د. محمد عزب



الإهداء

(١)

قبل أن ينطلق المنبه الضخم بصفير القطار صفعته كف غاضبة. يقبع هذا المنبه، الذي يأخذ شكل القطار، منذ سنوات في مكانه على «الكومودينو» بجوار الفراش. كان هذا المنبه ولا شيء غيره قادرًا على انتشال «مدحت» من سباته. حدث ذلك قبل أن يعرف القلق ويخبر الأرق، قبل أن يعشش «النيكوتين» في مسام جلده وخيوط ثيابه وأغطيته وثنايا أثاث منزله.

قطار سخيف يملأ الدنيا صخبا، لكنه لا يراوح مكانه ولا يحقق مبتغاه ولا يصل إلى مقصده تماما مثل القطار في قصيدة «سفر»( ) للشاعرة الأمريكية إدنا سانت فينست(١):

السكة الحديد على بُعد أميال

والنهار يضج بالأصوات

لم يمر القطار طيلة اليوم

بيد أني أسمع صفيره

نهض «مدحت» متثاقلا من الفراش. قبل عامين كان الاستيقاظ والنهوض يعنيان له الشيء نفسه ويشتركان في الحيز الزمني ذاته، أما الآن فبين فتح العينين وحث الجسم على الوقوف وقت يطول ويطول، اللهم إذا كان مضطرا لأن يذهب إلى دورة المياه.

كاد توازنه يختل وهو يبحث عن مداسه. نقرت يده عفويا لوحة مفاتيح حاسوبه المحمول. أضاءت الشاشة. ظهر عليها أمر «اضغط على أي زر للاستمرار» Press any key to continue. من المؤسف أنه لا يجد الزر الذي يجعله يستمر في الحياة. من المؤسف ألَّا يتغير في صباحه إلا التاريخ. كل يوم ينتحر ولا يموت. ما الذي أوصله إلى هذه الحالة من التراجع والتكور ورفض الحياة والهروب؟! أشياء كثيرة يهرب منها ولا أحد يهرب إليه.

نظر «مدحت» إلى المنبه في حنق، محاولا تذكر السبب الذي من أجله ضبط ساعته! كان والده وكيلا لوزارة النقل، وفي إحدى زياراته لأوروبا الشرقية ثمة من أهداه هذا المنبه. جمع الرجل وكدَّس ثروة ضخمة. لم يسلم من الهمز واللمز، حتى إن بعض الصحفيين عده من المرتشين وأدرجه ضمن قوائم

الفاسدين قبل أن يُوجّه له الاتهام رسميا. هذا القطار الدمية الذي يقبع في الغرفة ما هو إلا «ماكيت» دعاية لجرارات كثيرة تقف الآن بلا حراك على امتداد خطوط السكك الحديدية المتهالكة في تلك الدولة العتيقة البالية التي عفى عليها الزمن وأكل الدهر عليها وشرب.

شعر «مدحت» بالجوع. لا يتذكر آخر مرة تناول فيها وجبة كاملة ومفيدة. فتح الثلاجة فلم يجد بها سوى الخلاء والعفن. يعيش هو نفسه هذه الحالة من البيات والركود والتعفن. يدور في حلقة مفرغة من الضياع مثل «ماجلان» الذي عاد بسفينته للنقطة التي انطلق منها. أغلق باب الثلاجة بشدة حتى إنه عاد وانفتح. قرر أن يقلي بعض البيض، لكن جزيئات من القشر وقعت في السمن فعافت نفسه الطبق برمته.

بحث عن سجائره الأجنبية عوضا عن ذلك. غالبا ما يتركها بالقرب من منضدة الردهة. وجد على الطاولة خطاب أخته الذي وصل بالأمس من الولايات المتحدة فتذكر على الفور سبب نهوضه مبكرا. جلس على الأريكة يدخن. شعر بالراحة حين عاد النيكوتين لدورته الدموية. نظر إلى شاشة التلفاز الكبير الذي لا يُغلقه مطلقا.

راح يتابع إعلانا مبتذلا لعامل في محطة خدمة سيارات يملأ خزان البنزين

بسيارة أنيقة تقودها فتاة حسناء. ثبَّت العامل نظره بطبيعة الحال على هذا الصدر البارز حتى امتلأ الخزان وسكب الوقود على الأرض. تلميحات وإيحاءات جنسية سخيفة!

غيَّر «مدحت» القناة في ضيق فوجد طفلا يستخدم إطار سيارة داخليا كعوامة يسبح بها في ترعة مليئة بالقاذورات والحشائش والحشرات! استمر في تغيير القنوات في تؤدة: رجل دين يقول: «غيَّبني ذنبي. لا تبكِ على وسادتك، بل ابكِ على سجادتك»، أستاذ جامعة يشرح كيف تضحي درنة البطاطس الأم بنفسها من أجل أبنائها، عرض لكتاب «تسعة أسماء للقهر»، لاعب كرة قدم ابتلع لسانه، صورة للسان الهرة توضح الحليمات الخشنة به، فيلم رسوم متحركة يتحدث عن قرية يحلم سكانها بأشياء ويستيقظون ليجدوها معلقة على أحبال الغسيل.

سمع «مدحت» صوت شجار في الخارج، قام ليُلقي نظرة. يبدو أنه حادث مرور بسيط. عاد يرمي نفسه على الأريكة ويتابع تغيير قنوات التلفاز: شاب يردد عبارة «جبران»: «يضيع الحب بين مقصود لا يُنطق ومنطوق لا يُقصد»، فتاة تمشط شعرها الطويل بلون الفحم، أو قُل ريش الغراب، امرأة جالسة على سجادة تتحسسها وتلملم الوسخ في كفيها، صبي يحرق صراصير حية مستمتعا بصوت شوائها، رتل من الجنود يتحرك مثل حشرة «أم أربعة

وأربعين»، مذيعة تقول إن أغسطس ٢٠١٤ سيكون به خمس جُمَع، فيلم وثائقي يتحدث عن «عمى الثلج»، صورة للمصري الوحيد الذي كان على متن «تايتانيك»، مقدمة برامج أطفال تقول: لم يعرف العرب لفظة المليون فسموه «ألف ألف»، شاعرة تقول: «وُلدت بشق بين فخذي»، امرأة تقول، عن رجل عاشرها، إنه انفجر بداخلها كالانفجار الذي حدث في بدء الكون، أستاذ جامعي يقول إن الضمير لم يعد موجودا إلا في كتب النحو وإن الأطباء نجحوا في زرع كل شيء داخل جسم الإنسان إلا هذا الشيء.

أشعل «مدحت» سيجارة أخرى وتابع تغيير القنوات: ممثلة شهيرة تقول: «في الصيف نتوق للبرد وفي غيمة الشتاء نرنو للشمس، وهكذا الإنسان يعشق الغائب وينفض الحاضر»، بائع فول نابت وترمس يحاول فك رموز الحروف العربية من على قراطيس بضاعته، برنامج عن الأميرة «صالحة»، بنت الأمير إبراهيم حلمي ابن الخديو إسماعيل، التي أسقط عنها الأزهر اللقب لزواجها من مسيحي روسي، شاب مسكين يحيك جواربه البالية، سجين رأي محكوم عليه بالإعدام وشيكا يشعر بالغبطة حين يعلم أن زوجته وضعت ثلاثة أطفال من النطفة التي نجح في تهريبها من السجن، مشهد أبيض وأسود لتلميذ يجلِّد كتبه بورق مكتوب عليه «محل الصالون الأخضر»، رب عائلة يوجِّه حدَّادا إلى تركيب شرفة حديدية لشقته الضيقة حتى تتمكن زوجته من نشر

الغسيل، مدرس يشرح الاستعارة المكنية في عبارة «وتلاطمت الأيام»، فتاة وضعوا في ثقبي أذنيها خيطا مربوطا لحين ابتياع قرط لها، طبيب نفسي يتحدث عن «فوبيا» الخراء، فتاة تقول: «كلنا فترات في حياة بعض»، صبي غرق في البحر ولم يستطِع الغواصون انتشال جثته فطلبوا من أمه أن تحضر لشاطئ البحر وتخرج نهدها الأيسر وتنادي على ابنها، أطفال يضحكون في الصلاة، شاب شنق نفسه على لوحة إعلانات، فيروز تغني: «أحترف الحزن والانتظار.. أرتقب الآتي ولا يأتي.. وها أنا أستوطن الفراغ».

غيَّر «مدحت» القناة للمرة الأخيرة فوجد فيلم «ملائكة وشياطين»( ) لنجمه المفضل «توم هانكس»( ). سرح «مدحت» مع الفيلم وهو يتابع كيف استطاع البطل، «روبرت لانجدون»، فك شفرة «المتنورين»( ). لم يفق إلا عندما لسعت السيجارة أنامله. قام ليرتدي ملابسه وهو يستدعي شغفه بالغموض الذي كان يكتنف روايات «أجاثا كريستي» وحبه لشخصية «شرلوك هولمز» والمفتش «كولومبو» وأفلام الإثارة: «إنديانا جونز والمعبد الملعون»، «المومياء»، «قراصنة الكاريبي»، «شفرة دافنشي».

حصل «مدحت» على الثانوية العامة بمجموع متواضع. هيَّأه ثراء أسرته للالتحاق بالأكاديمية العربية للنقل البحري، وساعده مركز والده في الانضمام إلى قسم الملاحة البحرية. يملك «مدحت» عقلا ألمعيا وخلفية ثقافية

جيدة، لكنه لا يحب المذاكرة. على أي حال تخرَّج في النهاية وأصبح ربانا يمخر عباب البحار.

نشأ في عائلة قاهرية بامتياز، لكنه ارتبط بالإسكندرية بسبب دراسته وعمله في شركة ملاحة تجارية. يسكن هذه الشقة الرحيبة في شارع سوريا بمنطقة رشدي منذ عقد أو يزيد. رحل والداه وطارت أخته الوحيدة إلى أمريكا، حيث حصلت على وظيفة مترجمة في الأمم المتحدة، ثم تزوجت طبيبا مصريا مقيما في نيويورك واستقرت هناك.

ترك لهما والده ثروة ضخمة ظل معظمها تحت الحراسة بقرار من جهاز الكسب غير المشروع حتى وقت قريب حين تم رفع حظر البيع. شرع «مدحت» في بيع العقارات وقطع الأراضي، الواحد تلو الآخر. بسبب تجربته مع الحظر، نصحه المحامي بتسييل الأصول ووضعها في وعاء بأحد البنوك الاستثمارية الدولية. أخذ «مدحت» بالنصيحة وحرص على أن يحوِّل لأخته نصيبها طبقا لإعلان الوراثة.

توقف «مدحت» عن ركوب البحر، أو قُل إنهم أوقفوه بعد أن ثبت أنه شرب الخمر في أثناء قيادته للسفينة، الأمر الذي كاد يتسبب في كارثة لولا ستر الله. ما الذي سلمه إلى هذه الحالة من الجمود؟! كيف وصل إلى هذه

المرحلة من إنكار الوجود؟!

الإجابة هي: «سوسن». نعم.. زوجته «سوسن»، التي طُلِّقت منه بحكم قضائي منذ سنتين. قالت للقاضية إنه إنسان بلا مشاعر ولا يراعي احتياجاتها العاطفية. قالت إن لديها هاجسا بأنه يعاشر الساقطات في الموانئ التي ينزلها وتخاف من أن ينقل إليها أمراضا. قالت عنه أشياء كثيرة بعضها صحيح والبعض الآخر محض تلفيق وافتراء. حكمت القاضية للزوجة وضمت لها حضانة ابنتهما «سيرين». حصلت «سوسن» على وظيفة مرموقة، مديرة للعلاقات العامة بأحد فنادق شرم الشيخ الشهيرة، وطارت إلى هناك هي والصغيرة.

جلس «مدحت» على «الفوتيه» ليرتدي جوربه، وكالعادة شرد لدقيقتين أو يزيد. أشعل سيجارته الثالثة وهو يُقلب في التوكيل الذي أرسلته له أخته لبيع شاليه الأسرة في الساحل الشمالي. بعد مرور ساعة كان في سيارته القوية منطلقا نحو الغرب. البحر الآن عن يمينه يغريه بالاقتراب أكثر فيلتفت إلى الجانب الآخر أو ينشغل عنه بالبحث في مذياع السيارة عن قناة لا يتحدث فيها أحد.

سرح بخياله وهو في طريقه إلي الشاليه، أخذ يجترُّ ذكريات كثيرة: طفولته

الجميلة التي قضاها مع عائلته، مرح في الطريق إلى الشاليه لقضاء الصيف على الشاطئ، سمر حتى الساعات الأولى من الصباح، أغانٍ وقصص استمتع بها مع أخته الصغيرة، ساعات طوال من الغبطة قضاها دون هموم ولا شجون، أيام المراهقة والتهور مع أصدقائه، يتسللون ليلا ليشربون الجعة ويدخنون، ضبطهم حارس الشاليه المجاور يوما، كان جزاؤهم علقة ساخنة.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة مترددة. ولج إلى القرية السياحية الفاخرة التي لا تبعد كثيرًا عن الإسكندرية. كان يعشق المجيء إلى هنا في الشتاء مع زمرة من أصدقائه في «الأكاديمية». لم يدخل هذه القرية منذ وفاة والدته.

على باب الشاليه دق هاتفه. إنه المشتري يعتذر عن عدم تمكنه من الحضور اليوم ويطلب التأجيل للغد. شعر «مدحت» بالضيق. فكر في العودة أدراجه. أخرج سلسلة المفاتيح وأخذ يجربها الواحد تلو الآخر لفتح باب الشاليه. عادة ما يكون المفتاح الأخير هو المفتاح الصحيح. هذا ما حدث بالضبط. دلف «مدحت» إلى الشاليه ليستخدم الحمام وقرر بعدها العودة من حيث أتى.

في الحمام، وجد على غسالة الملابس لغزا من سلسلة المغامرين الخمسة. كان مُغرَما بقراءة هذه الألغاز في فصل الصيف. «تختخ وعاطف ومحب ونوسة ولوزة والشاويش فرقع والكلب زنجر»، يا لها من أيام جميلة! فقد

اللغز غلافه فراح «مدحت» يفر أوراقه عله يتذكر شيئا من أحداثه. مر بعض الوقت وهو يقرأ. عادت به الذاكرة إلى ماضٍ جميل. «لغز الجزيرة المهجورة»، أين هذه الأيام؟

شجَّعه اللغز على تفقُّد محتويات الشاليه. أخذ يقلب في الصور والكتب واللعب. تذكر أباه وأمه وأخته. أين رحلت هذه البهجة، بهجة البيوت؟ قرر أن يمضي الليل في الشاليه من باب التغيير حتى لا يخرج من حالة «النوستالجيا» تلك التي انتابته واستدرجت الدموع من عينيه.

ثم ما الفرق بين وجوده هنا وأي مكان آخر؟! الحيز نفسه من الفراغ الذي يشغله هو هو. وجوده في أي مكان لن يُحدِث فرقا كبيرا، لا في حياته ولا حياة الآخرين. لا يلتفت أحد إلى وجوده أصلا، سواء سكن أم تحرك وسواء سكت أم تمرد. ما هي إلا ساعات ويأتي المشتري في الصباح.

اليوم هو الأول من أبريل لعام ٢٠١٣، يوم الحمقى، أو «كذبة أبريل» كما يسمونه في دول كثيرة. حاول «مدحت» التحدث مع أخته في نيويورك عبر برنامج «سكايب» ليريها الشاليه ومتعلقاتهما المتناثرة به، لكن شبكة الإنترنت كانت مقطوعة. اتصل بها على شبكة الجوال. أبكاها حين وصف لها الشاليه وأغراضهما التي كانت يوما ما كل حياتهما. سألته أخته:

-هل أنت متأكد يا «مدحت» أنك تريد بيع الشاليه؟

-لا أدري يا «ماجيندا».

-لماذا لا تأتي إلى نيويورك لتغير جوا؟ لدينا مجموعة شائقة من الأصدقاء هنا.

-ربما فعلت ذلك في قابل الأيام.

-لا تبقَ في هذه الحفرة يا أخي؛ أنت لست شجرة.

-شجرة!

-نعم، سأرسل لك شيئا على الجوال، اقرأه جيدا.

فتح «مدحت» نوافذ الشاليه ليجدد هواءه وهو يردد: «إذا لم ترُق لك حياتك فانتقل، أنت لست شجرة». ابتاع بعض الأغراض من السوق التجارية بالقرية ثم جلس في الشرفة. دق هاتفه بنغمة الرسائل. مؤكَّد أنها من «ماجيندا». أبيات شعرية من جديد. لا تسأم «ماجيندا» من إرسال الشعر له.

الرجل الهالك.. لم يسمعه أحد..

ظل هناك يتأوه:

لقد كنت أبعد كثيرًا مما ظننتم

ولم أكن ألوح بل أغرق( ).

تنهد «مدحت» بحسرة واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقرأ تعليقها الأخير: «حاول أن تنجو بنفسك». لا شك أنه هو الغريق الذي لا يسمعه أحد. يظن الناس أنه يلوِّح لهم، لكنه في الحقيقة يغرق.

وضع «مدحت» الهاتف جانبا. راح يحدق في المياه الفيروزية. كيف نشأ هذا الجفاء بينه وبين البحر بعد أن كان حياته كلها؟! أغراه البحر بالاقتراب، لكنه ظل يتمنع حتى حل وقت الأصيل فلم يستطِع مقاومة روعة المنظر وبهاء المشهد.

اقترب متوجسا، لكن بساط الأمواج أخذ يرفرف فرحا كطائر يتعلم الطيران، طالبا منه أن يقترب أكثر. تمنى «مدحت» لو استطاع أن يرفع بيده هذا البساط ليعاين خبيئته. أصبح الآن على الشاطئ فخلع حذاءه. ما إن ابتلت قدماه حتى استعاد الإحساس القديم بالبحر.

أخذ شيئا من المياه بين كفيه. ملأ اليودُ رئتيه. ذرع المكان جيئة وذهابا في سعادة غامرة. فجأة لمح قارورة تتهاوى بين الأمواج. ظن أنها زجاجة خمر ألقى بها بحَّار يائس. تذكر الخمر وما جرَّته عليه من مصائب فتنهد متحسرا.

عاد ينظر إلى القارورة التي أسلمتها الأمواج للشاطئ. التقط الزجاجة ليجد

أنها معتمة اللون بشكل عجيب وأن فوهتها مغلقة بنفس مادة الزجاج المستخدمة في صنعها! رج القارورة فأحدثت صوتا ينبئ عن وجود شيء رقيق بداخلها. قلب القارورة محاولا تفحصها، لكنها سقطت منه على صوت نسائي زاعق ونبرة تشبه محققي الجهات الأمنية السيادية..

(٢)

-ماذا وجدتَ؟!

-من أنتِ؟!

-أخبرني في الحال.

-ليس هذا من شأنك.

-دعني أرَ؟

-ما هذا التطفل؟!

-تطفل! لا. أنت مُخطئ. أقيم في هذه القرية وأسدد أقساط تنظيف الشاطئ والحدائق وحمام السباحة وحاجز الأمواج.

-لست مهتما بأن أسمع قصة حياتك. أريني عرض أكتافك.

-خمسون.

-ما هذا؟!

-عرض أكتافي.

نظر «مدحت» إلى المرأة ثم ابتسم. التقط الزجاجة من على الرمال المبتلة قائلا:

-حسنا. دعيني أكسر القارورة على هذه الصخور لنرى ما بها.

-لا. لا تفعل ذلك. تبدو قديمة وقيمة. أعرف طريقة أفضل لفتحها.

أخذت المرأة القارورة ثم وجهتها نحو قرص الشمس الباهت قائلة:

-أرى بها شيئًا، لكني لست متأكدة من ماهيته.

-رسالة بحر إذًا؟

-من دون شك.

-لكن كيف وصلت إلى هنا؟

-لا أدري. ربما شباك الجر التي تقلب قاع البحر رأسا على عقب.

-شباك الصيد تقصدين؟!

-أجل. قبضت الشرطة مؤخرا على بعض صيادي هذه السفن لأنها تسببت في قطع كابل الإنترنت البحري بالقرب من «أبو تلات»، ألم تسمع بذلك؟

-نعم، لكني لاحظت انقطاع الشبكة فعلا. هذه القارورة...

-ما بها؟

-إنها خفيفة الحجم وأظن أنها لم تكن في القاع.

-ليس شرطا. في بعض الأحيان تعلق مثل هذه الأشياء في الشعاب المرجانية أو خلافها. سمعت أحد الغطاسين في التلفاز يقول إنه وجد قنينة مماثلة في قاع البحر داخل هيكل عظمي لأحد الحيتان.

-غريبة! يعني أن حوتا بلعها وأنها ظلت في جوفه حتى مات وتحلل.

-فعلا. على أي حال لديَّ منشار دائري يستطيع كسر عنق الزجاجة دون تحطيمها.

-حقا؟

-أجل. تعال معي إلى الشاليه. أنا هنا بصحبة والدتي. عادة ما نقيم في الساحل في الفترة من عيد الأم إلى شم النسيم. نسيت أن أعرفك بنفسي: «فريدة»، أعمل باحثة في مكتبة الإسكندرية.

-آه، من أجل ذلك تهتمين بالقارورة.

-أحب الغموض بشكل عام، وأنت؟

-نعم، أحب الأحجية والطلاسم والفوازير.

-لا، قصدت إكمال التعارف.

-آه، أنا «مدحت».. ربان.

-حسنا، ماذا تتوقع أن نجد بداخلها؟

-لا أدري، ربما عفريت من الجن نفك أسره ويصير في خدمتنا.

-واضح أنك تشاهد قنوات الرسوم المتحركة كثيرًا.

-ها قد عُدتِ إلى مضايقتي.

-آسفة، كنت أمزح فقط.

-تمزحين! هكذا مع الغرباء!

-لم نعد غريبَين. لقد تعارفنا. اسمع، صنعت أنا وأمي اليوم صينية مسقعة باللحم المفروم وأخرى تحوي قرعا بالباشميل والمكسرات.

-هذه دعوة على العشاء إذًا؟

-شيء من هذا القبيل.

-ترشينني لنقتسم ما في القارورة؟

-سمها ما شئت يا قبطان.

-يمكنك أن تناديني «مدحت».

-هل أنت هنا بمفردك أم مع أسرتك؟

-لا، بمفردي.

-سأنتظرك إذًا.. «شاليه» رقم سبعة.

-«شاليه رقم سبعة»! يبدو عنوانا للغز مثير، لكن...

-لكن ماذا؟

-لكنك.. لكنك...

-لكنك منطلقة ومنفتحة أكثر من اللازم وتدعين الناس للطعام دون أن تعرفيهم عن حق. هذا ما أردت قوله، أليس كذلك؟

-ليس بالضبط، يتعين عليك الاحتراز وحسب.

-أنت على حق. تدفع النساء أثمانا باهظة نتيجة للتبسط والتلطف، لكن

أخبرني.

-بماذا؟

-هل تنوي التحرش بي؟ لا يبدو عليك أنك من هؤلاء.

-أتحرش بك؟! أنت من يتحرش بي منذ نصف ساعة.

-إذا علمت زوجتك بذلك فقد توبخك.

-لست متزوجا. أقصد: كنت متزوجا وانفصلت. وأنت؟

-خُطبت مؤخرا، وفسخت الخطبة.

-لِمَ؟ أقصد...

-أراد هذا المعتوه أن يحتفظ بالقارورة لنفسه وحسب.

-أي قارورة؟

-أنا.

-لا أفهم.

-ألا تعرف أن النساء مثل القوارير؟

-بلى، سمعت ذلك.

-حسنا، أراد هذا الأبله أن يضعني في مخبأ ويعزلني عن الناس، أراد أن يهيل عليَّ التراب.

-آه. فهمت. وهل هناك من لا يزال يفكر بهذه الطريقة؟

-للأسف. اسمع.. لن أفتح القارورة إلا في وجودك. سأنتظرك في الثامنة.

-لا بأس. مع السلامة.

-آه بالمناسبة.

-خيرا؟

-لماذا أنت على البر ولست في البحر؟ إجازة؟

-ظروف.

-سأستدرجك لتحكيها لي.

-وأنا سأسمح لنفسي أن أُستدرج لأتحدث معك، لكن هذا يتوقف على جودة المسقعة.

-ليس لديَّ شك من هذه الناحية لدرجة أني أفكر في فتح مطعم لبيعها.

-يمكنني أن أشاركك في المشروع لو أعجبتني.

عاد «مدحت» إلى الشاليه بشعور جديد. امرأة لطيفة ومختلفة ولديها جاذبية من نوع ما. بسيطة وغير متكلفة. أين هذه من «سوسن» التي تتحدث من طرف منخارها؟

أشعل سيجارة، لكنه عاد فأطفأها. شم رائحة أنامله فسارع إلى الحمام فحلق ذقنه وغسل أسنانه ومشط شعره وتطيب ثم نظف حذاءه. جلس ينتظر الموعد وقد دغدغت الإثارة أعصابه. لم يصبر على الجلوس فنهض يترجل في الشاليه، تارة ينظر عبر النافذة وتارة يفتح الدواليب ثم يغلقها دون هدف واضح.

وجد في إحداها بعض قطع الشطرنج الذي ابتاعه والده له وهو بعدُ صغير، وبعض الكتابات والأوراق الخاصة بأخته. أخذ يقلب فيها. درست «ماجيندا» الترجمة. كانت تهوى ترجمة القصائد والقصص القصيرة. توقف «مدحت» أمام قصة قصيرة بعنوان «حديقة الذكريات»( ). تدور أحداث القصة حول رجل قرر بيع منزل العائلة. ما هذا التشابه العجيب؟! أخذ «مدحت» يقرأ بعض الفقرات في صمت وخشوع:

«شعر الرجل بخيبة الأمل، فلم يحقق المنزل سعرا مرتفعا في السوق كما كان يتمنى، مع وجود حاجة ماسة إلى بيعه حتى يخرج من الضائقة التي ألمت

به. رتب مع المحامي مقابلة بحديقة المنزل في ظهيرة ذاك اليوم؛ حيث عرض أحد عملاء الأخير شراء المنزل مع إضافة قيمة أخشاب الشجر.

وصل الرجل إلى المنزل قبل المحامي فراح يتجول في ثنايا الحديقة مطلقا العنان لذكريات أيام الصبا في هذا البيت الذي شب وترعرع به. توجه نحو جدول المياه ليعاينه. فجأة ظهر له طفل صغير ظن في البداية أنه ابن الحارس.

بلمحة واحدة، أدرك الصبي أن الرجل ليس غريبا عنه. كانت فطرته سليمة تماما كالحياة البرية من حوله. من جانبه، انتاب الرجل إحساس لا يخطئ بوجود قاسم مشترك بينه وبين الصبي وبانتماء الأخير إلى المكان كما لو كان نبتة زهرية أو شجيرة غنية بالرحيق.. فكيف يتأتى ذلك؟

-هل تعيش هنا؟

وجه الرجل سؤاله إلى الصبي. أجاب الصبي بالإثبات ملتفتا في فخر وشموخ إلى المنزل الرمادي فكأنما يقدمه وقد ذاب عشقا فيه.

-تقول «حنا» إنه منزل عتيق. توجد بالردهة فوق المكتب صورة للرجل الذي بناه وزرع أشجار الأيكة.

-«حنا»!

بالطبع هناك الكثير من الأشخاص الذين يحملون الاسم نفسه ومنهم الخادمة العجوز التي قضت نحبها منذ سنين يعجز الصغير عن حصرها، والتي كانت تجالس الرجل في صباه وتسرد عليه الأحاديث وتستحوذ على مسامعه بالحكايات.

-نعم. ألا تعرف «حنا»؟ يمكنك رؤيتها بعد قليل عندما تأتي لتصطحبني. تقول «حنا» إن الأشجار قد ترعرعت مع العائلة وإن تماسك المنزل وتداعيه مرتبطان بانتصاب الأشجار وسقوطها. هل تعتقد حقا أن الجذور تمتد هذه المسافة كلها؟

صار الرجل يرى الأشياء بعيني الصبي. انطوت الحديقة - كما ظلت دوما في ذاكرته - على الكثير من الغموض والسحر. حقا لم يتغير شيء، بل إن التغيير الذي تخيله لم يكن سوى تغيير عابر طرأ على نفسه هو وحسب. وضع الصبي يده الدافئة في يد الرجل وانطلقا معا نحو الأيكة كتلميذين هاربين من المدرسة.. في صحبة سعيدة وكأنها رفقة السنين.

-هذه «حنا».

قالها الصبي وقد انطلق مهرولا باتجاه المنزل متلافيا بالكاد الاصطدام بشخص اجتاز لتوه البوابة.

-من هذا الصبي الذي هرول منذ دقيقة بين الأشجار الوارفة؟

-طفل؟!

نظر المحامي بارتباك مردفا:

-لم أرَ أحدا. ليس للأطفال صلة بهذه الحديقة، كما أنه لا يوجد حارس لها. لقد أُغلق المنزل تماما منذ أحد عشر عاما عقب وفاة الخادمة العجوز التي كانت تدعى «حنا».

أضاف:

-لقد وافق موكلي على شراء المنزل طبقا للشروط المقترحة في البداية.

استطرد المحامي:

-إنه يعتزم الاستثمار العقاري في هذه المنطقة، وبالطبع سيتعين عليه قطع الأشجار.

سرت هبَّة من الهواء تخللت قمم الأشجار فارتعدت. قاطع الرجل المحامي قائلا:

-آسف لتحملك عناء المجيء إلى هنا، لكني قررت الاحتفاظ بالمكان كما هو بكل ما فيه. أعتقد أن من الخطأ أن تفقده العائلة. يجب أن أدبر أموري

المالية دون اللجوء إلى بيعه.

وهكذا استرد الرجل خيالاته الصغيرة عن فترة صباه».

أطرق «مدحت» مفكرا وقد غلبه التأثر. ما هذه المصادفة الغريبة؟! شعر أن «ماجيندا» هي من كانت تقرأ القصة له. ربما من أجل ذلك لم تكن مرتاحة لبيع الشاليه. لا يعاني ضائقة مالية وليس مضطرا لبيع الشاليه. لقد باع كل شيء ولم يبق سواه. بعض الأشياء ليست للبيع. ذكرياتنا وأيامنا وضحكاتنا ليست للبيع.

صور «مدحت» بكاميرا جواله الفقرة الأخيرة من القصة ثم أرسلها لأخته مع هذه الكلمات: وصلت الرسالة يا «ماجيندا». لن أبيع الشاليه.

جاءه الرد في التو واللحظة في صورة «سمايلي» سعيد. اتصل أيضا بالمشتري يعتذر عن عدم إتمام صفقة البيع لظروف ألمت به. أعاد «مدحت» الأوراق إلى مكانها ونظر في ساعته. لقد حان موعد انطلاقه للقاء «فريدة» وفتح قارورة حظه.

(٣)

كان في الهواء لسعة برد بسيطة، لكن شاليه «فريدة» كان دافئا بقلوب الأمهات. سُر كثيرا بالتعرف على والدة «فريدة» التي تعمل أستاذة غير متفرغة بقسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية. ذكَّرته بأمه على الفور. هذا الجيل من الأمهات نسخة تكاد تكون متكررة في جميع البيوت. هذا الجيل من الأمهات لا يُعوَّض.

أما «فريدة» فقد بدت في صورة مغايرة لهيئتها على الشاطئ. وجد إنسانة متأنقة متألقة تشع رقة وتقطر شفتاها عذوبة. ما أجملها في هذا الثوب «الموف»! انسدل شعرها الذي توارى آنفا خلف القبعة على كتفيها. شعر أن وجهها هو ما يضيء هذا الليل البهيم. الفرق بين «فريدة» على الشاطئ و«فريدة» في الشاليه باختصار هو الفرق بين لبنى عبد العزيز في فيلمي

«آه من حواء» و«الوسادة الخالية».

ما أروع أن تتناول طعام العشاء مع أم حانية وفتاة جميلة. أما المسقعة وقرع العسل فلم يكونا أقل حلاوة واشتهاء. قال «مدحت» موجها كلامه للسيدتين:

-أشكركما على هذا العشاء اللذيذ.

-حقا؟

قالتها الدكتورة «بثينة» بشيء من الحرج.

رد «مدحت»:

-ليس فيما قلت أي مبالغة.

خلعت «فريدة» نظارتها وهي تقول:

-ستشاركني في المطعم إذًا؟

-أجل، ومن دون شك.

-يمكننا أن نتحدث عن هذا فيما بعد، أما الآن فإلى القارورة ريثما تُحضر أمي لنا الشاي.

-نعم، القارورة.

-أعتقد أن بها لفافة أو ما شابه.

-لفافة! أتمنى ألا يكون سحرا.

-سحر؟! لقد قالت أمي شيئا قريبا من ذلك. في هذه الحالة سأترك لك أمر فتحها.

-لا أعرف كيفية استخدام هذا المنشار الأسطواني.

-يمكنني أن أعلمك.

-أقول لكِ: دعينا نقترع.

-جيد.

أحضرت «فريدة» جنيها فضيا ثم قالت:

-ملك أم كتابة؟

-ملك.

ألقت «فريدة» بالعملة في الهواء فسقطت على الأرض وتدحرجت نحو قائم المقعد لتستند إليه دون أن تنقلب.

بادر «مدحت»:

-نعيد الكرة إذًا.

-بل نتعاون في فتحها.

جلبت «فريدة» المنشار الدائري وثبتته في عنق الزجاجة. شرعا معا في لف وتدوير المنشار. تلامست أيديهما غير مرة فشعرا بإحساس مثير وتبادلا النظرات كلما حدث ذلك.

أخيرا انفصل جزء من عنق الزجاجة وخرجت من القارورة رائحة غير طيبة، ربما رائحة السنين. أفرغا محتواها لتسقط منها على المائدة لفافة جلدية غامقة. فتحت «فريدة» الرقعة الجلدية في حذر لتجد عليها رسوما محفورة بالنار. علقت الأم وهي تمسك بصينية الشاي:

-ما هذا؟!

-لا أدري يا أمي. تبدو خريطة لشيء ما.

-كنز؟

-ربما، لكنها تحتاج لمعاملة خاصة. احترس يا «مدحت».

-فعلا متآكلة للغاية. لا يمكن التعامل معها على هذا النحو.

-اسمع. لي صديقة تعمل اختصاصية معمل في كلية العلوم. سآخذ إليها غدا

في طريقي للعمل جزءا بسيطا من هذه الرقعة ليس عليه نقوش.

-لِمَ؟

-بالكربون يمكننا تحديد عمر الخريطة.

-ممتاز.

-ربما يجدر بي أن أخبرك أني أعمل في قسم المخطوطات بمكتبة الإسكندرية. سأقوم بعرض الرقعة على أجهزة خاصة تقوم بتحسين رسوم ونقوش المخطوطات باستخدام الحاسب الآلي. بعد ذلك سأعمل على تكبيرها وطبعها ونسخها.

-جميل.

-حين ننتهي من ذلك يمكننا إعادة الرقعة إلى القارورة وفحص الخريطة المُكبرة. ما رأيك؟

-ليس لديَّ مانع. سأشغل نفسي في الأيام المقبلة بتنظيف الشاليه وترتيبه وإصلاح بعض شأنه وأثاثه. متى تنتهي هذه الإجراءات؟

-أسبوع فحسب.

-لا بأس.

-أيضًا الأسبوع المقبل تصل «غادة»، بنت خالتي، من القاهرة لتمضية فترة معنا. عمل زوجها «علاء» مدرسا للتاريخ فترة ثم التحق بدار المحفوظات ثم أصبح مرشدا سياحيا قبل أن يمتهن الكتابة. «علاء» عاشق لكل ما هو عتيق. حققت روايته الأخيرة عن الحملة الصليبية السادسة نجاحا طيبا وتُرجمت للغة الإنجليزية.

-للأسف لم أسمع عنها.

-ركز فيها على العلاقة الإنسانية التي نشأت بين الملك الأيوبي «الكامل محمد» والإمبراطور «فريدريك الثاني» في أثناء حصار دمياط.

-جميل.

-على أي حال يمكنه أن يساعدنا كثيرًا في هذا الشأن.

-حسنا، شيء غريب!

-ما بك؟

-تخيلي، جئت هنا اليوم لأبيع الشاليه.

-تبيع الشاليه؟

-أجل.

-لِمَ؟ خسارة.

-أدركت ذلك وعدلت عن البيع.

-ساقتك الأقدار إلى القارورة.

-نعم، ما أجملها من قارورة!

-ماذا تقول؟

-لا شيء. أراك لاحقا.

-حسنا جدا. إلى لقاء قريب.

عاد «مدحت» إلى الشاليه وهو يفكر في هذا اليوم الزاخر بالأحداث. تمر عليه أيام كثيرة دون ملامح مميزة تبقيها في ذاكرته. جرت أمور عجيبة منذ أن دق المنبه في الصباح وحتى بضع دقائق مضت. ثمة من ساقه إلى هذا كله. يروق له أن ينظر إلى وقائع اليوم بمسحة من القدرية. لقد كاد يعود أدراجه حين اتصل به المشتري. القدر هو من وضع في طريقه «فريدة» والقارورة وتلك القصة التي ترجمتها «ماجيندا» وهي بعدُ طالبة في الجامعة الأمريكية.

خلال الأسبوع التالي، تغير نمط حياة «مدحت» على نحو لافت. بدأ يتعامل

مع مفردات يومه بشكل مختلف. امتنع عن احتساء الجعة نهائيًّا وقلل من عدد السجائر التي يدخنها. فتح ستائر النوافذ وأصبح يتطلع إلى رؤية البحر. أنشأ صفحة له على «فيس بوك» ونجح في التواصل مع ابنته واللعب معها «أون لاين».

غدت «فريدة» تهتم بنفسها أكثر من ذي قبل. عادت تصفف شعرها وتلمِّع أظافرها. ابتاعت ملابس جديدة وأدوات ومساحيق تجميل وقرطا جديدا ومشدات من النوعية التي تبرز الصدر. استبدلت بنعالها العملية أخرى ذات كعوب مرتفعة. استعاضت عن نظارتها بعدسات لاصقة ملونة. لاحظت أمها ما طرأ عليها من تغيير فقالت لها يوما:

-شاب لطيف.

-من؟

-«مدحت».

-فعلا يا أمي، لكن جرح زوجته السابقة أفقده الثقة في نفسه و...

-والنساء الأخريات.

-ربما يا أمي، إلى حد ما.

-وجرحك أنت؟

-لقد تجاوزت تلك النقطة يا أمي. وها أنا أسعى إلى الخروج من الشرنقة. لطالما طلبتِ مني المحاولة، أليس كذلك؟

-بلى.

-أدركت أني أتقدم في العمر وأفقد بويضة تلو الأخرى.

-عيناك تلمعان. لم أرَ هذا البريق منذ فترة. هذا أمر يسعدني. فقط كوني حريصة يا «فريدة». ما زالت معرفتنا به هشة.

-لا تقلقي يا أمي.

تمددت «فريدة» على فراشها. شردت للحظات وهي تفكر في خطيبها السابق وما عانته معه من جرَّاء بخله وغيرته وقصر نظره وضيق أفقه وانغلاق عقله. كانت غلطة كبيرة. تعجلت في قبوله. خافت ألَّا تلحق بقطار الزواج، لكن الاقتران من هذا الموتور يعني إلقاء نفسها تحت القطار فعليا. تُردد بعض النسوة أن ظل رجل أفضل من ظل حائط، لكن إذا كان هذا الرجل من عينة خطيبها السابق وعلى شاكلته، فظل «دبوس إبرة» قرب ساعة الزوال أفضل منه.

على الرغم من ذلك يؤلمها إحساس العنوسة والهمس واللمز والغمز. على

أي حال، لقب «عانس» أفضل من لقب «مطلقة». مع وطأة الأيام طوت «فريدة» هذه الصفحة من حياتها وباتت تجتر مرارة الوحدة وعدم اهتمام الرجال بها. حلمت دوما بدفء الأسرة، برجل تشاركه الطعام والفراش، لكن يبدو أن الزمن قد أدار لها ظهره فوقعت في شرَك العنوسة ولبست حزام العفة طواعية.

ننام كل يوم على أمل أن نجد الفرحة، ثم نفتح عيوننا على الأثاث نفسه والمتاع نفسه والأشياء نفسها. تمضي حياتنا بالإيقاع البطيء كفيلم صامت من دون موسيقى تصويرية. يزيد عبوسنا وصمتنا كلما تقدمنا في العمر ونفقد البهجة والدهشة.

صحيح، بعض الناس يعيشون، لكنهم لا يحيون. يضعون المبتدأ وينتظرون الخبر، ويطول انتظارهم. يفتحون قوسًا ثم تفشل الكلمات في غلقه. بعض الناس هم المستثنى بإلا وغير وسوى وخلا وعدا، بعض الناس هم المستثنون من الفرح.

طلبت منها صديقتها «مشيرة» أن تبحث عن رجل. قالت لها: «ليس هناك أجمل من أن تتقاسم المرأة الحياة مع رجل، الحياة بكل تفاصيلها، حلوها ومرها. حتى الأشياء البسيطة التي نفعلها كل يوم تُصبح مختلفة مع رجل.

حتى الشجار له طعم مختلف، سواء تشاجرتما حول مصروفات البيت أو من يستأثر بالوسادة الإضافية على السرير ليضعها بين فخذيه».

أمسكت «فريدة» بريموت التلفاز. يروق لها أن تشاهد قناة الأفلام المفضلة لديها قبل النوم. أليس غريبا أن يكون الفيلم المعروض هو «رسالة بحر» Message in a Bottle؟ شردت «فريدة» وهي تتذكر قارورة اليوم.

تلفتت فوقع بصرها على الرقعة الجلدية. ابتسمت وهي تتذكر لقاءها اليوم بـ«مدحت». رسالة سحر أم رسالة كنز أم رسالة عشق؟! وضعت جنبها على الفراش والوسادة الإضافية بين فخذيها. ابتسمت سائلة في سرها: من يتشاجر على وسادة زائدة يا «مشيرة»؟!

أغمضت عينيها وهذه الكلمات تصل إلى أذنيها من التلفاز: «عزيزتي كاثرين. أفتقدك يا حبيبتي كما هو الحال دوما، لكنني أفتقدك اليوم أكثر لأن المحيط ظل يغني لي والأغنية هي حياتنا معا».

نامت «فريدة» كالملاك وقد راودتها أمنية بأن تحلم حلما جميلا يجعلها تنهض في غبطة وفرحة، وقد كان.

(٤)

في طريقهما إلى الساحل الشمالي، أوقف «علاء» سيارته الروسية من طراز «لادا» في «الرستهاوس». استخدم هو وزوجته «التواليت» ثم جلسا يحتسيان القهوة دون أن ينبسا ببنت شفة. أخذت «غادة» تتفحص وجوه المسافرين، أما زوجها فقد انشغل في مطالعة الجريدة. مضى على زفافهما خمس سنوات فقدا خلالها القوة الدافعة لبقاء علاقتهما كما كانت قبل الزواج وخلال عامه الأول. قال لهما الطبيب إنهما مؤهلان تماما للإنجاب، لكنهما غير متحمسين للعلاقات الحميمة بشكل كافٍ.

تعمل «غادة» مدربة للجمباز في نادي الجزيرة، عودها ممشوق ووجهها جميل، لكن عضلات ساقيها وذراعيها أكبر من التعاريج الأنثوية في جسمها. تقضي أوقاتا طويلة في النادي مع لاعبات الجمباز، وتعود إلى البيت متعبة

تحمل أكياس الفاكهة والجزر والخيار والخس والسمك المشوي. أسطوانة البوتاجاز في شقتها تدوم حوالي ستة أشهر. حتى الشاي والقهوة تعدهما باستخدام الغلاية التي تجعل طعمهما غير مستساغ. الأكواب والأطباق الورقية والملاعق والشوك البلاستيكية أكثر ما تجده في سلة القمامة التي تخرج من منزلهما.

لم يعترض «علاء» كثيرا على استمراء زوجته الغياب وحالة الصمت التي وسمت أيامهما. يتناول طعامه في الخارج، والأكل بالنسبة له هو سد للجوع وحسب. يدمن قراءة كتب التاريخ التي تأخذه إلى عوالم أخرى فلا يشعر بوطأة الحاضر. يحيا في الماضي بعصوره المختلفة مع أمهات الكتب التي يطالعها. عمليا، لا يعيش في الحاضر سوى بضع ساعات فقط. رفقاؤه الحقيقيون هم: «ابن كثير وابن الأثير والطبري والمسعودي وابن إياس والجبرتي وابن تغري بردي».

من الصعب أن تُدخل في روع «علاء» أن أسئلته التي ينام ويستيقظ عليها ليست لها إجابة: ما معنى معاداة السامية بينما خرج البشر كلهم من رحم واحد؟! لماذا يقدح اليهود في أنبيائهم وكتابهم؟! ما الذي يجعل بعض اليهود بعد الشتات يفرون إلى الجزيرة العربية حيث الجدب والعطب؟! ما حقيقة «برنابا» هذا وإنجيله؟! هل غطى طوفان «نوح» العالم القديم والجديد؟!

هل أسلم «بحيرا» الراهب؟! لماذا لم يُكشف عن مخطوطات البحر الميت كلها؟! هل أخرس الله «يهوذا» حين حمل صليبه فلم يستطِع أن يصيح بأنه ليس المسيح؟! لماذا يحتفل النصارى بعيد الميلاد في يناير ومريم عليها السلام هزت جذع النخلة وأكلت منها رطبا جنيا، وموسم الرطب في فلسطين هو أكتوبر؟! هل حقا طلب السيد المسيح - عليه السلام - من الحواريين نشر دعوته في شتى أصقاع الأرض؟! من القديسة «سارة كالي»؟! لماذا طلب «الفاروق» من «طلحة» تطليق زوجته اليهودية وهو يعلم أن الرسول تزوج السيدة صفية بنت كبيرهم؟! كيف يقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة ثم يتزوج امرأته في الليلة نفسها؟! لماذا عيَّن «عثمانُ» عبدَ الله بن أبي السرح على مصر وهو يعلم أن الرسول أهدر دمه قبل فتح مكة؟ ولماذا قرب «مروان» وهو يعلم أن الرسول لعنه؟! لماذا عذب عمر بن عبد العزيز خبيب بن الزبير حتى فاضت روحه؟! ولماذا سحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية؟! كيف تجرأ الحصين بن النمير على حرق الكعبة وضربها بالمنجنيق؟! لماذا حارب محمد علي الوهابيين وخرب الدرعية؟! لماذا تم تكفير ابن رشد وابن النفيس وابن سينا وابن عربي وأبي بكر الرازي وجابر بن حيان والخوارزمي وأبي العلاء المعري والإمام الطبري والحلاج وغيرهم؟! لماذا قُتل «عثمان» - رضي الله عنه - هذه القتلة البشعة؟! لماذا وقف

الجيش الذي أرسله أمير الشام «معاوية» خارج المدينة المنورة ولم يتقدم لنجدة ذي النورين؟! هل كان من الأفضل أن يتولى «علي» - كرم الله وجهه - الخلافة بعد الرسول؟! لماذا خرجت السيدة عائشة على ابن عم الرسول وأول من أسلم من الشباب؟! ما حكم العشرة آلاف مسلم الذين قضوا في موقعة الجمل؟ ما حكم قتلى صفين؟! ما هذه الدماء كلها؟! كيف طاوع يزيد بن معاوية قلبه فقتل «الحسين» وأهل بيته؟! كيف قتل العباسيون الأمويين ونبشوا قبورهم؟! لماذا واصل «معاوية» القتال بعد مقتل عمار بن ياسر ومعلوم أن الرسول قال له: «تقتلك الفئة الباغية»؟! لماذا خرج «الحسين» للكوفة وهو يعلم أنه سيموت هناك؟! لماذا يجعل الشيعة الإمامة في أبناء «الحسين» دون «الحسن»؟! لماذا قام خالد بن عبد الله القسري بذبح الجعد بن درهم في عيد الأضحى بالمسجد؟! لماذا استهان زياد بن أبيه وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وغيرهم بالدم؟! ثم ما هذه الطرق البشعة في القتل والتعذيب التي تزخر بها كتب المؤرخين من تقطيع الأوصال وعصر الخصيتين حتى الموت وفقء العيون وبقر البطون وحرق الناس أو دفنهم أحياء والبناء عليهم وقلع أظافرهم وسل ألسنتهم؟! تاريخ كله محنة وأيام كلها كربلاء. لماذا لم يذكر «مرقص» و«يوحنا» و«لوقا» قصة رحلة العائلة المقدسة إلى مصر؟! كيف يؤمن النصارى بمقولة «أحبوا أعداءكم»

ثم يقتلون آلاف المسلمين في محاكم التفتيش بالأندلس وآلافا مؤلفة عند دخولهم القدس في الحملة الصليبية الأولى ومئات الآلاف من الهنود الحمر، سكان العالم الجديد، وآلافا آخرين خلال فترة الحروب الدينية في أوروبا؟! لماذا وقفت الكنيسة ضد أطروحات العلم ونظرياته فقتلت وحرقت وسجنت وعذبت من العلماء الكثير، مثل: «كوبرنيكوس» وجيوردانو برونو و«جاليليو»... إلخ؟! لماذا قُتل «سقراط» و«هيباتيا» وجان دارك وعبد الله بن المقفع و«السهروردي» وأحمد بن نصر الخزاعي؟! لماذا استعان الحكام المسلمون بالصليبيين ضد بعضهم البعض في الشام والأندلس؟! هل وقوف الأرمن مع الروس يعطي للأتراك الحق في ذبح النساء والشيوخ والأطفال؟! من رخَّص لـ«ستالين» قتل أكثر من عشرة ملايين مسلم؟! من رخَّص لـ«هتلر» إبادة اليهود؟!

من فمك تُدان وبنارك تُحرق أيها الإنسان. صحيح، فالتاريخ يصنعه البشر والبشر ليسوا ملائكة. يا عذابات من يبحث عن الحقيقة فلا يجدها! يشقى بعقله صاحب الفكر والرأي. ينشد الإجابة فتزيد حيرته وتتأجج محنته وينتهي به الحال إلى الشطط. يقول الفيلسوف الألماني ليسنج: «لو أخذ الله الحقيقة المطلقة في يمناه وفي يسراه الرغبة الجارفة للبحث عنها والتعثر في دربها وطلب مني أن أختار لجثوت ذليلا قائلا: يا رب.. أعطني الرغبة في البحث؛

لأن الحقيقة المطلقة لك وحدك».

التقى «علاء» «غادة» في المدرسة. كانت تعمل مُعلمة ألعاب قبل أن تأخذ إجازة من دون راتب وتنتقل للتدريب في نادي الجزيرة. بدأ الأمر بخناقة بينهما. كان يشرح للطالبات خطأ تسمية الحكم التركي لمصر بالاحتلال العثماني؛ لأن الأتراك على ملة جلة المصريين. استطرد في الحديث فجار على حصة الألعاب على الرغم من تذكير الطالبات له. فجأة اقتحمت «غادة» الفصل وأخذت تكيل له السباب والاتهامات. في نهاية اليوم كان قد نشأ بينهما نوع من التواصل. صدق المثل الذي يقول إنه «لا محبة إلا بعد عداء».

-لا أراك متحمسًا للساحل الشمالي.

-أبدا. أحب الكلام مع خالتك حين تحدثني عن الإسكندرية التي رأتها في فترة طفولتها.

-ناهيك عن القراءة.

-وما الضير في ذلك؟

-لا شيء. شرودك فقط.

-أبحث دون جدوى منذ فترة عن خيط روائي أمسك به.

-نضب معينك ولديك هذه الكتب كلها؟!

-ما أسعى إليه هو دائما إشارة بسيطة أو حادث عابر بين السطور أبني عليه قصتي.

-على أي حال تقول «فريدة» إن لديها مفاجأة لك.

-حقا؟ ما هي؟

-لا أدري، لكنها قالت إنك ستُسر بها. أتدري؟

-امممم.

-أشعر أحيانا بالرغبة في عمل شيء مختلف.

-مثل ماذا؟

-مثل القفز بالمظلة من ارتفاع كبير أو المشي على الحبل أو تسلق جبل «سانت كاترين».

-رغبات رياضية مرة أخرى!

-أليس ذلك أفضل من التحنط في كتب التاريخ؟

-لا، ليس أفضل.

-لا بأس، لا يمكنني أن أتعاطى مع الحياة بمنظورك.

-كيف؟

-ألم تنتبه إلى أنك لم تحدثني منذ خرجنا من الجيزة، وأن المذياع ظل على البرنامج الثقافي؟!

-وما الضير في ذلك؟ ها أنت تعودين إلى حديثك القديم وتفسدين علينا الرحلة.

-الاستفادة من الوقت شيء طيب ومحمود، لكن أحيانا يحتاج الإنسان إلى ألَّا يفعل شيئا على الإطلاق. يحتاج إلى أن يكون تافها.

-لا أتفق معك.

-تتفق أو تختلف، على الأقل لا تطلب من الناس أن يكونوا مثلك.

-كيف؟

-يمضون اليوم بطوله في القراءة ويشاهدون البرامج الثقافية ويزورون المتاحف والمعابد.

-وما الضير في ذلك؟ لا أسبب إيذاء لأحد.

-هذه وجهة نظرك.

-لا تكُفِّين أبدا عن التبرم.

-أتمنى أن أجد سببا وجيها يجعلني أتوقف عن فعل ذلك. الشهر المقبل يحل عيد زواجنا الخامس. أتمنى أن تجد سببا وجيها لتذكر هذا اليوم.

-سبب وجيه. سبب وجيه. تتحدثين دوما عن الأسباب الوجيهة وليس في حديثك أو أفعالك أي وجاهة أو معقولية أو عقلانية.

-حسنا، لنعُد إلى صمتنا إذًا ما دمت لا تجد في كلامي أي منطق.

-أجل هذا أفضل. دعيني أنتبه للطريق.

-أرجو ذلك، فقط أذكرك بحادث العام الماضي حين سرحت في أحداث روايتك الأخيرة. لست مستعدة للموت من أجل شاردة أو واردة تأتي من ماضٍ سحيق.

من شرد بالفعل هذه المرة كانت «غادة». سافرت عبر الأيام علَّها تفهم علة الخلل الذي أصاب زواجها. «علاء» شاب طيب وخلوق، لكنه قليل الكلام. لا يحب الغِيبة ولا النميمة. ليس هذا أمرا سيئا على الرغم من أنها - كأغلب النساء - تحب سقط الكلام. لا شك أنها تتحمل جزءا مما آل إليه الحال مع «علاء». يعشق كتب التاريخ. لا بأس. ما الضير في ذلك؟ أليس ذلك أفضل من الجلوس على المقاهي والخروج مع الأصدقاء وربما ما هو أسوأ من ذلك؟

لكن كتب التاريخ تلك تفصله عن الواقع وتعزله عن الحياة وتشوش عقله حين يعقد المقارنات بين ما كان وما هو قائم بالفعل. تذكر ما أخبرها هو نفسه عن صديقه «عبد الرحمن»، الذي أفسدت هذه الكتب زاوجه، بل وحياته. ظل الرجل يقرأ عن الملوك والحريم: الخليفة الفلاني كان له ثلاثمائة جارية، والسلطان العلاني كان لا ينام مع أَمَةٍ مرتين. راح الرجل يتزوج ويطلق وينادي بعودة ملك اليمين حتى انتهى به المطاف في السجن.

لِمَ لا تحاول أن تقترب من عالمه؟ هكذا نصحتها إحدى صديقاتها. المرأة بصفة أساسية هي عماد البيت ورأس الخيمة وعمود الاتزان بالقارب. لِمَ لا تحاول التقاءه في منتصف الطريق؟ لديها أيضا أخطاؤها. لا بد أن تعترف بذلك. أهملت نفسها وأهملت بيتها لفترات طويلة. لم تعد تشارك زوجها اهتماماته.

تبتاع الطعام من الخارج وترسل الملابس للمغسلة وتتصل بشركات النظافة لتعتني بالمنزل. لم تدخر قرشا واحدا، ربما بسبب هذه الأفعال. ثم متى كانت آخر مرة ارتدت لزوجها قميص نوم قصيرا أو داعبت رقبته أو قبَّلته من دون مناسبة أو دعته للفراش؟ الحيوانات والطيور تفهم الغزل والإغراء أكثر منها! ربما كان من المناسب أن تفكر في تغيير هذا كله. ربما كان من المناسب أن تفكر في إنقاذ زواجها. لديها فرصة طيبة في الساحل الشمالي

يجب أن تعمل على استغلالها.

راحت تُصغي لما تقوله هذه القناة الثقافية. شد انتباهها همس المذيعة الرقيق ونغمات الموسيقى الخافتة. أرادت أن ترفع صوت المذياع. كادت تمد أصابعها لتفعل ذلك، لكنها ترددت في اللحظة الأخيرة واستعاضت عن ذلك بغلق زجاج بابها. أرهفت السمع لتلك القصة العجيبة، قصة امرأة تصنعت الصمم حتى لا تتحدث مع زوجها وتتفرغ لهواياتها المحببة: الحياكة والقراءة!

«ألقت ماري كيلي نظرة عبر نافذة البيت العتيق الكائن بالمزرعة لتجد مشهدا خيَّمت عليه الكآبة: حقول جرداء وأشجار عارية باهتة كساها الندى ولا أثر لمنزل في الأفق. ليست ماري هذا النوع من النساء اللاتي ينشدن الصحبة. أحبت الحياكة وتعلق وجدانها بالقراءة وعزفت عن الكلام، وربما أصابت قدرا وافرا من السعادة في المزرعة لو تُركت لحال سبيلها. كانت ترنو قبل زواجها إلى الساعات الطويلة التي تقضيها في الحياكة والقراءة. أُنهكت في أعمال المنزل المتداعي دون عون خلال النهار؛ لذا تطلعت إلى المساء بمصابيحه وأجوائه الهادئة الوادعة، لكنها بعد عشر سنوات من زواجها تخلَّت - على مضض - عن الأمل في عودة هذه الأمسيات، فأنَّى لسكينة المساء أن تعشش في مطبخ المنزل حيث يفزعها صوت جون كيلي الجهوري بأوامره وشكواه أو قراءته العالية المتعثرة والمتقطعة للجريدة؟! غلب الصمت على

طبع ماري فنشأت محبة له، لكن جون - على النقيض - أحب سماع صوته وراق له الصياح في وجهها واستدعائها من غرفة لأخرى، وفوق هذا وذاك أحب سماع صوته وهو يقرأ لها الجريدة في المساء، وكان هذا الأخير أشد ما تعاف نفسها. أنهك هذا الأمرُ أعصابَها حتى أحست بالرغبة في الصراخ. أصبح صوت زوجها الرتيب مزعجا ومؤرقا على نحو يصعب وصفه، والنداء عليها لتترك ما بيدها من أعمال المنزل وتتوجه إليه لتحضر له خفه أو غليونه قد أفرغ ما في صدرها من صبر ودفع بها إلى حافة التمرد بتمتمة عبارات من قبيل: أحضر خفك بنفسك. لكن هذه العبارات المرتعشة لم تغادر قط شفتيها لأنها امرأة لا تحتمل الغضب ويفزعها الصخب بكل درجاته. تحملت ماري هذا كله لمدة عشر سنوات، الأمر الذي يجزم بمقدرتها على التعايش معه، لكنها أدركت اليوم بشكل قاطع بينما راحت تحملق بقنوط في الريف الذي لفه الشتاء أنه لا يمكنها تحمل المزيد. لا بد من حدوث شيء ما، لكن ما هو؟»( ).

«لا بد من حدوث شيء ما، لكن ما هو؟».. هكذا رددت «غادة» في أعماق نفسها. ما هذه القصة التي تكاد تتحدث عن زواجها، مع تبادل الأدوار؟! نعم، لا بد من حدوث شيء. عليها أن تسعى بكل ما أوتيت من جهد وقوة إلى إعطاء قبلة الحياة لزواجها الذي غدا على كف عفريت. عليها أن تعيد الأمور

إلى نصابها مع زوجها «علاء» قبل أن يتصنع الصمم. حقا.. قصة صغيرة قد تغير حياتك برمتها، بل جملة واحدة قد تفعل ذلك.

(٥)

في مساء اليوم ذاته تقابل الأربعة: «فريدة» و«غادة» و«علاء» و«مدحت» في شاليه الأخير. بعد تعارف بسيط قدم «مدحت» الكعك والعصير للضيوف ثم دخلوا في الموضوع مباشرة. بدأت «فريدة» موجهة كلامها لـ«مدحت»:

-حكيت لـ«غادة» و«علاء» عن ملابسات العثور على القارورة.

-جيد.

-كنت قد قصصت من الرقعة شيئا بسيطا حرصت ألا يكون به أي نقوش وتوجهت به لزميلتي بكلية العلوم لتجري اختبار التحديد الزمني للمادة العضوية باستخدام كربون ١٤. أظنكم تريدون أن تعرفوا النتيجة!

قال «علاء» متحمسا:

-أجل يا «فريدة». هاتي ما عندك وكفاك تشويق برامج المسابقات.

-حسنا. تلقيت مكالمة هاتفية أمس من زميلتي. لقد أرجعت القطعة تقريبا إلى الفترة بين عامي ١٢٠٠ و١٢٥٠ ميلادية.

علقت «غادة»:

-ثمانية قرون تقريبا. هذا كثير جدا.

-أجل يا «غادة».

-لكن هل من المعقول أن هذه القارورة ظلت في البحر المتوسط هذه السنين كلها؟!

-لقد شرحت لـ«مدحت» هذا الأمر من قبلُ يا «علاء». يبدو أن القارورة علقت بشيء وغاصت في القاع ثم حُررت أخيرا فعادت للطفو. من العجيب أيضا أن القارورة ظهرت بعد قطع كابل الإنترنت البحري بمنطقة «أبو تلات» الذي تسببت فيه على الأغلب شباك الجر كما تقول التحريات. شباك الجر أشبه بالمكنسة التي تكسح أعماق البحار. شهد الأسبوع الأخير من مارس أيضا هبوب نوة «العوة» وبرد «العجوزة»، ومعروف أن البحر يرتفع ويتقلب خلال الأنواء.

-على أي حال، لا ينبغي أن نتوقف عند هذه النقطة كثيرا.

-بالضبط يا «مدحت». المهم، أخذتُ الرقعة إلى قسم المخطوطات بمكتبة

الإسكندرية فقمت بمسحها وتكبيرها باستخدام الكمبيوتر وكذا تحسين خطوطها ونقوشها ثم طباعتها ونسخها، وهاهي النتيجة.

أخرجت «فريدة» من حافظة بلاستيكية أسطوانية مجموعة الخرائط وقامت بفتح إحداها على المائدة وهي تقول:

-استنسخت لكل واحد منكم صورة حتى يتمكن من دراستها حين يخلو بنفسه. بالنسبة لـ«علاء» و«غادة» يمكنكما الاكتفاء بنسخة واحدة.

-لا يا بنت خالتي، أريد نسخة لحالي، وسأثبت لك أني جديرة بها.

نظر «علاء» إلى وجه زوجته الذي حمل علامات الجد والاهتمام. وحين شاهد الخريطة انبرى قائلا:

-تحفة. أليس كذلك يا «غادة»؟

-جميلة فعلا. عمل رائع يا «فريدة».

-شكرا لك. هيا أروني همتكم.

وقف «علاء» بحيث يستطيع إلقاء نظرة طائر محلق على الخريطة ثم دار دورة كاملة حول المنضدة قائلا:

-اسمحوا لي أن أبدأ أولا. لديَّ ما أريد قوله. لـ«أرسطو» نظرية مهمة تُعرف

بالوحدات الثلاث: الزمان والمكان والحدث. معروف أنه إذا كان لديك معلوم ومجهولان فمن الصعوبة بمكان كشف النقاب عن أيهما، أما إذا كان لديك معلومان ومجهول فالأمر أيسر بكثير.

-لا أفهم ماذا ترمي إليه يا «علاء». ادخل في الموضوع مباشرة.

-الصبر يا «غادة». نعرف الآن الزمن التقريبي للخريطة. من ١٢٠٠ إلى ١٢٥٠، ومتوسطهما ١٢٢٥، يزيد أو ينقص. ما نحتاجه الآن هو تحديد المكان. إذا استطعنا أن نعرف العصر والمكان كان بمقدورنا أن نهتدي للحدث والأشخاص الذين ارتبطوا به. أرأيت يا «غادة»؟

-فعلا. لم أكن أعرف ذلك. عندي سؤال لك يا «فريدة».

-تفضلي.

-هل يمكن لكربون ١٤ أو أي مادة أخرى معرفة نوع الجلد المستخدَم في الرقعة؟

-بمعنى؟

-بمعنى يا «علاء»: لو كان جلد حيوان الرنة مثلا عرفنا أن موطن الخريطة المنطقة الجليدية.. وهكذا.

تطوع «مدحت» بالإجابة:

-سؤال جيد. من الثابت تاريخيا أن «الفايكنج» وصلوا إلى البحر المتوسط. مجرد استطراد يا «فريدة».

-من المُستبعَد أن تكون القارورة قد ولجت فيه من مضيق جبل طارق. إنها في الغالب تنتمي إلى العالم القديم، وبالأخص حوض البحر المتوسط، وتحديدا جنوب غربي المتوسط؛ لأن الاتجاهات الرئيسية للرياح في هذا البحر المحصور شمالية غربية.

-بمعنى أننا نتحدث عن فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، أليس كذلك يا «فريدة»؟

-بلى يا «غادة». وعلى أي حال لم تفُتْني نقطة نوع الجلد تلك فطلبت من صديقتي «مشيرة» دراسته.

-حقا؟ ألم يكن أجدر بك أن تقولي ذلك من البداية؟ وهل أخبرتك بالنتيجة؟

-ليس بعدُ يا «غادة». طلبت مني الاتصال بها في التاسعة.

علق «علاء»:

-لقد تجاوزت الساعة التاسعة الآن. اتصلي بها ريثما نعد الشاي.

أعدت «غادة» الشاي. خرجوا جميعًا يحتسونه في الحديقة. اتصلت «فريدة»

بـ«مشيرة» حسب اتفاقهما. ظلت تتحدث معها لفترة. ما إن أنهت المكالمة حتى التحقت بالمجموعة من جديد بالقرب من حمام السباحة الخاص بالقرية. سارعت «فريدة» بالقول:

-فحصت «مشيرة» الكولاجين في القطعة الجلدية وقامت بمقارنتها بقطع أخرى من جلود الخنازير والماشية والخراف والغزلان.

صاح الجميع في صوت واحد:

-وبعدُ؟

-أجرت مكالمة هاتفية مع زميلة لها تعمل في الطب الشرعي بمشرحة «كوم الدكة».

صاح «مدحت» في دهشة:

-لِمَ؟

-شكت أنه جلد بشري، ويبدو أن استنتاجاتها كانت صحيحة.

أطرق الجميع مفكرين، ثم قطع «علاء» الصمت قائلا:

-جلد آدمي! ماذا يقول لنا ذلك عن المكان؟

«غادة»: ربما كان ميدانا من ميادين القتال.

«مدحت»: أو أن مجموعة من الناس حوصروا في مكان ما وقضوا نحبهم، الواحد تلو الآخر، وأن آخرهم هو من خطَّ الرقعة بعد سلخ جلد أحد مرافقيه النافقين ثم تجفيفها بالملح وتركها لفترة في الشمس.

-حسنا. والنار التي استُخدمت في نفخ الزجاج أو النقش بالحرق؟

-النار ليست مشكلة يا «علاء». أنت تعرف أن الإنسان عرف النار منذ القدم وتعلم كيف يشعلها. أما النقش بالحرق فقد تم باستخدام قطعة من المعدن أو الحجر المدبب أو خلافه. بالنسبة لنفخ الزجاج فهذه أيضا حرفة قديمة، لكنها تحتاج إلى مادة «السيلكون»، وأظن أنها متوافرة في تخوم البحر المتوسط.

-ممتاز يا «مدحت».

أمسكت «فريدة» بخيط الحديث قائلة:

-هلم بنا إذًا إلى الداخل لنلقي نظرة على الخريطة.

وجَّه «مدحت» الحديث إليها قائلا:

-«فريدة».. أليس من المناسب أن ندعو والدتك للحاق بنا؟

-لا تقلق عليها يا «مدحت»؛ إنها تستمتع بوقتها مع جارتنا مدام «إنجيلا».

ما إن عاد الجمع إلى ردهة الشاليه وثبتوا عيونهم على الخريطة وهم وقوف حتى انطلقت «غادة» قائلة:

-تشبه خرائط الكواكب والنجوم. هناك مجموعة من النجوم تأخذ شكلا مقاربا. أعتقد أنها خريطة فلكية. يؤكد هذا الخطوط، أما الجمجمة فربما هي لكائن فضائي وليست لها علاقة بالموت على الإطلاق.

علق «علاء» ساخرا:

-ليس هذا وقت المزاح وشطحات الخيال العلمي يا «غادة».

-لا أمزح، ومن فضلك لا تسخر من كلامي. ملحوظة صغيرة قد تؤدي إلى اكتشاف كبير. قدح من الشاي أوصل البشرية إلى القاطرة البخارية. نافذة نُسيت مفتوحة قادت «فلمنج» إلى «البنسلين». درسنا هذه الأشياء في الفيزياء.

-أعتذر.

-لا بأس. انظر! ثمة من أرسل لي معلومة عن أغرب الجماجم على «الفيس».

أخرجت «غادة» هاتفها، وما إن وصلت للمشاركة حتى واصلت:

-انظروا.. جماجم «باراكاس»( ) لها رأس طويل، جمجمة «ستارشايلد»( )

والجماجم البلورية التي تم اكتشافها في أمريكا اللاتينية. هذه الجماجم كلها من الصعب أن تكون لبشر.

سادت فترة من الصمت الذي قطعه «مدحت» في حماسةِ مَن وجد ضالته:

-لا. هذا غير صحيح. انظروا إلى هذا السهم أعلى الخريطة إلى أقصى اليمين. هذا السهم يشير إلى جهة الشمال. كان هذا أول ما لُقِّنَّا في الأكاديمية ونحن ندرس الخرائط البحرية. ومن ثَمَّ اسمحوا لي أن أوجه الخريطة بشكل صحيح بحيث يشير السهم إلى البحر.

أدار «مدحت» الخريطة وسط إعجاب الحاضرين. علقت «فريدة»:

-وهذا يعني يا «علاء» أن الرقعة تضم خريطة جغرافية، أليس كذلك؟

-فعلا يا «فريدة». ماذا ظننت غير ذلك؟ كائنات فضائية!

رمقته «غادة» غاضبة ثم قالت:

-أرجو أن تتوقف عن التهكم.

-حسنا يا زوجتي العزيزة.

-هل يمكن أن تكون هذه الجمجمة شعار القراصنة يا «مدحت»؟

-لا يا «غادة»، هذه مختلفة. ليس هناك عظمتان.

علق «علاء»:

-عمل رائع يا قبطان. والآن إلى هذه الخطوط السبعة.

قاطعته «فريدة» قائلة:

-لحظة يا «علاء». من الضروري أن أشير إلى أن هذه الخطوط لم تكن موجودة في الخريطة. فقط الدوائر. لقد قمت أنا بتوصيل الدوائر بالخطوط على الحاسب الآلي.

-حسنا، لا بأس يا «فريدة». توصيل الخطوط عمل منطقي. ملحوظتي الأولى عنها أنها متفاوتة الطول، بعضها متوازٍ وبعضها متقاطع يُكوِّن زوايا كثيرة بين منفرجة وحادة، ثم إن هذه الخطوط السبعة محصورة بين ثمانية أرقام تحدد البداية والنهاية. ما دلالات الرقم ثمانية؟! أنا سمعت أنه رقم السعد لدى اليابانيين أو الصينيين.

علقت «فريدة»:

-يحمل عرش الله ثمانية. أمضى الكليم ثمانية أعوام لدى النبي شعيب. المسيح ذكر ثماني تطويبات على جبل الزيتون. سُمي المعتصم بالمُثمن لأن خلافته دامت ثمانية أعوام وخلَّف ثمانية آلاف دينار وكان له ثمانية آلاف من الجواري والعبيد. لكن الأهم من ذلك أن هذه الأرقام عربية، أما الأرقام التي

نستخدمها نحن العرب الآن فتسمى الأرقام الهندية.

-لكني سمعت أن الأرقام العربية تبدأ بالصفر.

-هذا صحيح يا «غادة»، وبما أن الأرقام هنا تبدأ بالواحد فهذا يعني أن الأرقام تشير إلى أشياء موجودة بالفعل.

أخذ «مدحت» بتلابيب الحديث مضيفا:

-هذا صحيح يا «فريدة»، وأعتقد أن وجود الأرقام في دوائر يشير إلى شيء يقل وينمو.

أوضح «علاء»:

-الأرقام العربية تقوم على مبدأ الزوايا أو عدد الزوايا. عدد «ستة» مثلا به ست زوايا.. وهكذا.

علق «مدحت»:

-صحيح.

-لكن الدائرة غير محددة بزوايا.

-وهذا أيضا صحيح.

قاطعت «غادة»:

-هل يمكن أن يكون ثمة علاقة بين الزوايا التي ترمز لها الأرقام الثمانية والزوايا التي تشكلها الخطوط؟

ردت «فريدة»:

-ربما يا «غادة»، دعينا نحسبها.

مضت دقيقتان انطلق بعدهما «مدحت» قائلا:

-الأرقام تحوي ستا وثلاثين زاوية قائمة، وهو مجموعها، أما الزوايا التي يشكلها التقاء الخطوط فثماني عشرة.

-رقمان مثيران ويقبلان القسمة. اثنان!

انبرى الجميع يفكر في أشهر الثنائيات:

-الشمس والقمر.

-الليل والظلام.

-الإنس والجن.

-الجنة والنار.

-الماء واليابسة.

-السماء والأرض.

نظرت «غادة» إلى «علاء» وهي تقول:

-زوج وزوجة.

قاطعتها «فريدة»:

-زوج وزوجة شيء واحد.

التقت نظرات «غادة» و«علاء» ونظر «مدحت» إلى «فريدة» التي قالت في رقة:

-عينان.

-أذنان.

-شفتان.

صرخت «فريدة»:

-كفى. أرجوكم. أعتقد أن هذا يكفي اليوم. نحن متعبون. أشعر أن عقلي سينفجر. ليأخذ كل منا نسخته من الخريطة ويضعها في مكان يقع نظره عليها باستمرار ونلتقي غدا بعد الغروب.

-اتفقنا.

ودع الجميع «مدحت» وانصرفوا. في الطريق قالت «غادة» ضاحكة:

-من يرانا بهذه الخرائط يظن أننا طلبة في كلية الهندسة نعد مشروع التخرج، أليس كذلك يا «فريدة»؟

-نحتاج فعلا إلى مهارات هندسية لنفهم قضية الخطوط والزوايا تلك.

-أنا شخصيا أردت دخول كلية الهندسة وانتهى بي المطاف في التربية الرياضية. لن أفيدكم كثيرًا.

-وأنت يا «علاء»؟ «علاء».. «علاء»!

-نعم يا «فريدة»؟

-أنت لست معنا على الإطلاق.

-فعلا سرحت في الخريطة.

-لا أريد أن يمنعكما هذا الأمر من الاستمتاع بالمصيف وإلا شعرت بتأنيب الضمير.

-لا تقلقي يا «فريدة»، أخطط لأن أمضي الصباح في متحف العلمين الحربي. هل تأتين معي يا «غادة»؟

-متحف العلمين الحربي! لا أعرف.. لا أظن.. أقول لك: لا بأس.

-هل أنت جادة؟

-أجل. أشعر برغبة في معرفة بعض الأشياء التي تنقصني. أحيانا أحسد المثقفين على المعلومات التي تعج بها رؤوسهم.

-جميل جدا.

-لكن على شرط.

-ما هو؟

-حين نعود نسبح لمدة ساعة.

-لا بأس. أشعر بتيبس في جسمي وأريد أن آخذ حمام شمس على أي حال.

-اتفقنا.

(٦)

في الصباح، انطلقت «فريدة» بسيارتها إلى المكتبة في آخر يوم عمل لها قبل القيام بإجازتها السنوية. قصد «مدحت» الإسكندرية أيضا ليُحضر بعض الأغراض التي يحتاجها من شقته. توجه «علاء» و«غادة» غربا إلى المتحف. التقطا بعض الصور بجانب المدافع والدبابات. شاهدا «ماكيت» ضخما للمعارك في شمال أفريقيا وخطوط الإمداد في البحر المتوسط. قال «مدحت»:

-ألا تلاحظين شيئا؟

-ما هو؟

-المدن على امتداد المتوسط محددة بدوائر.

-فعلا، تُحدَّد المدن في الخرائط كلها بنقاط سوداء في الغالب. كيف لم ننتبه

إلى ذلك ونحن نعاين الخريطة بالأمس؟!

-ربما لأننا كنا متعبين.

عاد «علاء» وزوجته إلى القرية السياحية. على شاطئ البحر طلبت منه «غادة» أن يمسك بقدميها لتقوم بتمرين البطن. فوجئ «علاء» أن «غادة» تعد ١٢٠ عدة بطن متتالية و٥٠ عدة ضغط مقابل ٣٥ و١٥ من جانبه. جرى معها على الشاطئ، لكنه سرعان ما جلس على الرمال وظل يتتبع جسمها الجميل المتناسق يقفز فوق الرمال كمهرة بيضاء. تذكر يوم زفافهما واستدعى «غادة» بفستانها الأبيض الجميل وقدرتها على التشكل على الفراش في حركات رائعة.

التفت ببصره إلى البحر فعاد يفكر في الخريطة. أدرك أن عليه أن يبدأ في تسجيل كل ما يحدث في الجلسة المسائية. سيطلب من «غادة» بعد الغداء أن تساعده في تدوين ما حدث بالأمس، وسيطلب من «فريدة»، وربما «مدحت» أيضا، أن يسردا عليه تفاصيل ما حدث يوم أن قذف البحر بالقارورة.

أحس أنه على أعتاب رواية جيدة. يشعر بغبطة كبيرة حين يدخل في أجواء رواية جديدة. حياته بلا رواية ليس لها معنى. لو خرج له جني من تلك

القارورة وطلب منه التمني لقال له: «أعطني رواية». أقسى لحظات حياته حين ينتهي من رواياته؛ لأنه يتعيَّن عليه وقتها أن يودع شخصياتها إلى الأبد، فهو ليس من النوعية التي تعيد قراءة كتبها بعد طبعها.

في الموعد المحدد، التف الأربعة من جديد حول منضدة العمليات بشاليه «مدحت». بدأ «علاء» على الفور بالاكتشاف الذي وصل إليه اليوم في متحف العلمين. اتفق معه الآخرون على أن الدوائر تشير إلى مدن. علقت «فريدة»:

-في هذه الحالة، لنترك موضوع الأرقام ودلالاتها ونركز في تحديد المدن، لكن لديَّ ملحوظة بسيطة حول الأرقام العربية أحب أن أوردها في هذا المقام.

-ما هي؟

-قرأت اليوم يا «غادة» في المكتبة أن الأوروبيين شرعوا في استخدام الأرقام العربية عام ١٢٠٢ ميلادية.

علق «علاء»:

-تاريخ قريب من عمر الرقعة الجلدية.

-بالضبط يا «علاء». وهذا يعني أننا على الطريق السليم.

أمسك «مدحت» بطرف الحديث قائلا:

-تعرفون بالطبع أن مقياس رسم الخريطة هو نسبة المسافة على الورق إلى ما يعادلها على الطبيعة. من الواضح أن من ينقش أو يحفر بالنار على رقعة من الجلد الآدمي لم يتوافر لديه ترف القياس ولا أدواته، ومن ثَمَّ فالخريطة تقريبية إلى حد كبير. لكل منا في عقله مقياس رسم يميل إلى النسب والتقريب إلى الأحجام الطبيعية.

-لا أفهم.

-أشرح لك يا «غادة». إذا طلبنا منك أن ترسمي على ورقة هذا «النيش» مثلا، فإنك ستحاولين أن تنقليه على الورق بنسبة تقريبية طبيعية. الأطفال فقط يفتقدون هذه النسب، ومن ثم تجدينهم يرسمون رأس الإنسان أكبر من جسمه، وهكذا. كلما كبرنا تم صقل الاتجاهات الجغرافية لدينا، وكذا مقياس الأبعاد التقريبي.

علق «علاء»:

-حسنا يا «مدحت»، وبعدُ؟

-أحضرت معي اليوم مجموعة خرائط شفافة لحوض البحر المتوسط بنسب مختلفة. بحثت عنها في شقتي بـ«رشدي» ووجدتها بعد عناء. كنا نتدرب

على هذه الخرائط فيما يُعرف بالتوقيع أو التسقيط.

-بمعنى؟

-بمعنى، يا «فريدة»، وضع البيانات عليها. والآن سنُجري معا تجربة شائقة. سأحاول قدر المستطاع تحديد مقياس الرسم.

أخرج «مدحت» من الملف إحدى الخرائط الشفافة لحوض المتوسط ثم أردف:

-سنمسك بهذه الخريطة الشفافة مثلا ونحاول مطابقتها على الرقعة، لكن لحظة. لن نستطيع فعل ذلك.

-لِمَ يا «مدحت»؟

-تذكرت الآن يا «فريدة» أنه يجب أن يكون لدينا على الأقل نقطة واحدة معلومة.

-تقصد دائرة واحدة، أي رقم أو مدينة؟

-أجل يا «غادة».

-إذًا نعود للخريطة مؤقتا. ماذا لدينا أيضا يا «علاء»؟

نظر الجميع إلى الخريطة..

-لدينا يا «فريدة» هذه الجمجمة والقضبان الثلاثة.

-نعم. الجمجمة تشير إلى الموت.

-هذا بدهي يا «فريدة»، والقضبان إلى السجن.

علق «مدحت»:

-إذًا فلدينا شخص قضى نحبه في السجن. والدليل على ذلك أن خطوط الجمجمة ليست مكتملة لأنها توارت خلف القضبان. أهذا ما أردتَ قوله يا «علاء»؟

-بالضبط يا قبطان. يسمون ذلك في التصوير والفنون التشكيلية: الخلفية والأمامية، وبالإنجليزية Background & Foreground. الجمجمة في الخلفية والقضبان في الأمام.

-القضبان؟!

-ماذا عنها يا «فريدة»؟

-أشعر أني رأيتها من قبلُ يا «علاء». انظري يا «غادة». ألا تُذكِّرك بشيء؟

-لا.

-أتذكرين ونحن بعدُ فتاتان صغيرتان حين كنا نتعلم شغل الإبرة في الصيف؟

-أجل.

-هذه الغرزة في «الكروشيه»، ثلاث أو أربع خطوات لا أذكر.

-اسمعي.. خالتي قد تساعدنا، سأذهب إليها. أمهلوني خمس دقائق.

توجهت «غادة» وبيدها الخريطة لتسأل خالتها عن الغرزة. انهمك «علاء» في تدوين ما يحدث. يفعل ذلك بين الفينة والأخرى حتى لا تقع منه أي أحداث.

سألت «فريدة» «مدحت»:

-كيف حال «سيرين»؟

-بخير. أرسلت لي صورة على «فيس بوك». شبت جميلة. غيرت آخر ضروسها بالأمس.

-ألا تخطط لزيارتها؟

-لا أدري. ربما.

-كم عمرها؟

-اثنا عشر.

-أظن أن أمامها ثلاث سنوات لتختار مع من تقيم طبقا للقانون الحالي، أليس كذلك؟

-بلى.

-لا تتركها يا «مدحت».

-لا يمكن أن يحدث ذلك.

-وماذا عن والدتها؟

-ماذا عنها؟

-ألم تتزوج؟

-لا أعرف. أقصد لا أظن. لو صح ذلك لفقدت حضانة «سيرين». ربما تعيَّن عليَّ أن أتحرى عن هذا الأمر وأستوثق منه.

-تدري؟ تعمَّد خطيبي السابق اليوم أن يريني الفتاة التي ارتبط بها مؤخرا.

-أين حدث هذا؟

-في المكتبة. ألم أخبرك أنه يعمل في المكتبة؟

-نعم.

-تعارفنا فيها أول مرة. ظن أنه بذلك يكيد لي. مسكينة هذه الفتاة. أرثي لحالها. وأنت، أين تعرفت على زوجتك؟

-زواج صالونات عادي عن طريق معارف الأسرة. كانت والدتها في «الروتاري» مع أمي.

-امممم.

عادت «غادة» بخفة ورشاقة صائحة على عتبة الباب كما صاح «أرشميدس» من قبل:

-وجدتها. اسمها عقدة الحب يا بنت خالتي، أو عقدة السلسلة.

-أجل. أجل.

-أما مدام «إنجيلا»، التي كانت تحتسي القهوة مع والدتك، فقد زوَّدتني باسم آخر.

-ما هو؟

-عقدة سليمان.

-عقدة سليمان؟!

-أجل. وأخبرتني أيضا أنهم يصنعونها في الكنيسة على شكل صليب في أحد الزعف.

هرعت «فريدة» إلى «اللاب توب» المفتوح على المنضدة. كتبت «عقدة

سليمان» في محرك البحث لتجد صورا لنفس النقشة الموجودة في الخريطة.

صاحت قائلة:

-انظروا!

التف الجميع حول جهاز الحاسب المحمول:

-فعلا. الشكل نفسه.

-أجل يا «مدحت». عقدة سليمان كما ترون. تُسمى باللاتينية Sigillum Salomonis وهذا يعني حرفيا «ختم سليمان». تستخدم في التطريز وفي العمارة أيضا كنوع من الزخرفة والزينة.

-تقصدين أنها في الخريطة تشير إلى مبنى معماري أو ثوب مطرز؟

-ربما يا «علاء». لا أعرف. المهم أن ما لدينا هنا ليس سجنا وهذه ليست قضبانا.

علقت «غادة»:

-أتفق معك يا «فريدة»؛ فالسجون لا تُزيَّن، كما أن القضبان ليست ملتحمة. ربما كان تابوتا.

أكملت «فريدة»:

-دعوني ألخص لكم بعض ما كُتب في «ويكيبيديا» عن «عقدة سليمان» (Solomon›s Knot). نسبة لسليمان بن داوود. رمز للأبدية، وتشير إلى المعرفة والقوة. كانت إحدى النقشات السائدة في مملكة يهوذا مع «نجمة داوود» أو «النجمة السداسية» و«الشمعدان السباعي». ظهرت كذلك على الأبنية الرومانية وفي الأندلس، ومنها انتقلت إلى الأبنية الإسلامية الحديثة. تجدها في كنيسة المهد ببيت لحم وعلى مصحف يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي يحتفظ به المتحف البريطاني.

علق «علاء»:

-كل يوم أحس بأهمية هذه الرقعة وبأنها قد توصلنا إلى شيء مهم.

-كنز؟

-احتمال كبير يا «غادة».

-نقتسم ما فيه، أليس كذلك يا «فريدة»؟

-هههههه. بكل تأكيد يا «غادة».

أخذ «مدحت» بطرف الحديث قائلا:

-اسمعوا يا جماعة. لدينا نقطة بداية ونقطة نهاية، ولدينا عقدة سليمان

وجمجمة. المنطق يقول: إن العقدة مرتبطة بالدائرة رقم واحد؛ لأنها في الأمام، كما أشار «علاء»، والجمجمة مرتبطة بالدائرة رقم ثمانية لأنها في الخلفية.

علق «علاء»:

-رائع. كل عقدة ولها حلال، كما يقولون.

أمسكت «غادة» بخيط الحديث مضيفة:

-وبما أننا نتحدث عن النبي سليمان إذًا فنحن نتحدث عن الهدهد والجن والخيول وبساط الريح وخاتم سليمان وأمثال سليمان وكرسي سليمان ومنسأة سليمان وخيول سليمان وأشياء كثيرة مرتبطة بسليمان الحكيم. إذًا نحن نتحدث عن القدس أو...

صاح الجميع في نفَس واحد:

-«أورشليم».

طلبت «فريدة»:

-نتوقف هنا إذًا. ما رأيكم؟

رد «علاء»:

-لا يا «فريدة»، لا تقطعي حبل أفكارنا. لدينا تدفق وزخم من الخواطر. دعينا نكمل. توقفنا عند «أورشليم».

أمسك «مدحت» بالخريطة الشفافة قائلا:

-الآن يمكننا أن نطابق الخريطتين. دعونا نرَ القدس على المربع رقم واحد. هكذا.. إلى اليسار قليلًا ثم إلى أعلى. يمكنني الجزم بأن الدائرة رقم ٢ تقع في إيطاليا، إذا قسنا طول الخط الأول نجده حوالي...

نظرت «غادة» إلى قراءة المسطرة قائلة:

-حوالي ٧ أو ٨ سنتيمترات.

-فعلا يا «غادة». والآن إلى هذا الكتيب الذي يحدد المسافة بين المدن. دعوني أرَ من «أورشليم» إلى «روما» مثلا، بصفتها عاصمة إيطاليا، حوالي ٢٣٠٨ كيلومترات. نقسم هذا الرقم على ٨ مثلا يكون الناتج حوالي ٢٨٨. يعني ذلك أن كل سنتيمتر على الخريطة يساوي ٢٨٨ كيلومترا في الحقيقة.

-جميل جدًّا يا «مدحت». عمل رائع يا قبطان.

-شكرا يا «علاء». والآن دعونا نستخدم هذه الشفافة لأنها أنسب للمقياس الذي حددناه. توقفنا عند الدائرة رقم ٣ في اتجاه الغرب. دعوني أرَ. حسنا.. نحو الغرب.. إسبانيا.

-الأندلس قديما أو شبه الجزيرة الأيبيرية.

-حسنا يا «علاء»، ليكن ذلك ثم شرقا من جديد. شمال شرقي القدس.. لا بد أنها الشام.

-جميل جدا. أكمل يا «مدحت».

-حسنا يا «غادة»، دعينا نرَ. نحن نتجه جنوبا الآن، هذه المرة جنوب شرق.. إلى.. إلى.. الحجاز. أجل، الحجاز. نتحرك الآن نحو الجنوب من جديد. هذه المرة جنوب غرب. القرن الأفريقي. بعدها شمالا نحو مصر في الغالب، ليس بعيدا عن المكان الذي نجلس فيه الآن، وأخيرا الدائرة رقم ثمانية إلى... دعونا نرَ.. إلى إحدى جزر البحر المتوسط.

-أبليت بلاء حسنا يا «مدحت». قبطان عن حق.

-شكرا يا «علاء».

-رائع يا «مدحت»! أنا فخورة بك.

-حقا يا «فريدة»؟

-بالطبع. إن حماسك واهتمامك يثيران الإعجاب.

-شكرا لك.

تدخلت «غادة» قائلة:

-لكن السؤال هنا: لماذا لم يقُم صاحب الرقعة بتوصيل الدوائر كما فعلت «فريدة»؟!

-تقصدين الخطوط؟

-نعم يا «مدحت».

-أقول لك: إشكالية الخط هنا أنه يحدد المسار. انظري مثلا إلى الخط بين فلسطين وإيطاليا. من الجائز أن يكون المسار بحريا مطابقا للخط، ومن المحتمل أن يكون المسار بريا عن طريق تركيا. الكلام نفسه ينطبق على الخط بين إسبانيا والشام. من الجائز أن يكون مسارا بحريا في المتوسط أو بريا عن طريق شمال أفريقيا انتهاء بمصر، ثم الصعود شمالا إلى الشام. من صنع الخريطة كان من الذكاء بحيث لم يحدد المسار. اكتفى فقط بتحديد المدن.

علق «علاء»:

-جميل جدا. الآن نستطيع أن نتوقف ونحن نشعر بالفخر والرضا عمَّا أنجزنا الليلة. أعطوني فرصة لأكمل تسجيل ما حدث الليلة وتدوينه.

-لقد سجلت لك الحوار بالكامل.

-حقا يا «غادة»؟

-أجل على هاتفي.

-فكرة رائعة يا «غادة». لقد أسديتِ لي معروفا كبيرا.

-لا بأس يا زوجي العزيز.

(٧)

في صباح اليوم التالي، انطلق «علاء» و«غادة» إلى منطقة آثار «مارينا». نوت «غادة» في قرارة نفسها أن تقتحم هذا العالم بغية مشاركة زوجها اهتماماته، وقرر هو الشيء نفسه بالنسبة لزوجته بعد أن لمس تغييرا واهتماما من جانبها. قررا أن ينقذا زواجهما من الخرس. «غادة» التي لم تحب مادة التاريخ يوما بدأت تفسح له مساحة في حياتها، و«علاء» الذي لا يمارس الرياضة مطلقا أصبح حريصا على تحريك جسمه وتنشيط عضلاته وانتقاء طعامه.

الأهم من هذا وذاك أنهما تحدثا معا عن فكرة الطفل المفقود في حياتهما واتفقا أن عليهما أن يبذلا مجهودا أكبر في هذا الصدد. كان المصيف فترة موفقة لهما، ولا بد أن الرقعة الجلدية قد لعبت دورا في هذا الشأن. إذا كان في هذه الرقعة سحر فهو السحر الذي جبر الكسر أو قلل الشرخ بين «غادة»

و«علاء» من جهة وجمع بين «مدحت» و«فريدة» من جهة أخرى وإن ظلا متحفظَين في البوح بمشاعرهما.

في منطقة آثار «مارينا»، كانت الأعمدة الرومانية البيضاء جد مبهرة. علق «علاء»:

-يراودني إحساس أن الرومان لهم دخل كبير في الرقعة الجلدية. البحر المتوسط ذاته كان بحيرة رومية، والدليل ما حولنا.

-فعلا ذكر «مدحت» أن الدائرة رقم ٢ هي إيطاليا أو روما على الأرجح.

-شاب لطيف. أستغرب كيف تركته زوجته؟!

-هناك أسباب لا تظهر للعيان. الطلاق في بعض الأحيان يكون أفضل الحلول.

-ماذا؟!

-قلت...

-لا عليك. سمعت كلامك.

وضع «علاء» يده على كتف زوجته وضمها إليه ولسان حاله يقول: «ليس أفضل الحلول بالنسبة لنا».

-أعتقد أن ثمة أحاسيس متبادلة بين «مدحت» وبنت خالتك.

-«فريدة»؟ أجل، لديَّ الشعور نفسه.

رافقت «فريدة» وأمها جارتهما «إنجيلا» إلى مطار «برج العرب»؛ حيث استقبلت ابنتها «فيبي» العائدة من زيارة لليونان. تستخدم «فيبي» كرسيا كهربيا للتنقل؛ حيث إنها أصيبت بالشلل منذ نعومة أظافرها. على الرغم من ذلك يخامر كل من يعرفها شعور بأنها طائر يحلق هنا وهناك ولا يتوقف عن الحركة والعمل والإنتاج سوى للنوم.

توجهوا جميعًا بعد ذلك إلى «وادي النطرون»، وهناك ألقت «إنجيلا» محاضرة في دير «الأنبا بيشوي» عن الأسرار السبعة للكنيسة. لم تتخيل «فريدة» أن هذه السيدة البسيطة تحتفظ في عقلها بكل هذه المعلومات عن تاريخ مصر القبطية. لقد درست وابنتها اللاهوت والتاريخ الكنسي في الكرازة وخدما هناك لفترة.

أما «مدحت» فقد قرر أن يصطاد على متن مركب مزوَّد بمحرك استأجره لهذا الغرض. صحيح أن الحظ لم يحالفه كثيرًا، لكن نزوله البحر كان خطوة مهمة في طريق استعادة ثقته بنفسه وربما التفكير في طلب العودة للإبحار. كل ما يحتاجه هو تجديد شهادات الصلاحية وإعادة الكشف الطبي الذي يجريه البحارة التجاريون على فترات. لا يخشى شيئا الآن. أقلع عن الخمر نهائيًّا

واستعاد ثقته في نفسه وتجاوز الفترة السابقة من حياته.

عاد الجميع من الخارج إلى شاليه «مدحت» الذي طلب لكل منهم وجبة طعام بحر مشكل من مطعم «زفير» بالمكس. ربما أراد أن يرد عزومة المسقعة. استفسر عن مدام «إنجيلا» فقالوا له إنها توجهت بصحبة ابنتها «فيبي» إلى الإسكندرية حتى تستعدا لاحتفالات عيد الفصح. سألت «فريدة» «مدحت»:

-أين السمك الذي اصطدته؟

-هو ما أمامك.

-أتكلم بجد.

-أعطيته لأحد البستانية في القرية.

-ماذا أخرجت؟

-«شراغيش».

-ماذا قلت يا «مدحت»؟!

-نوع من أنواع السمك يا «علاء».

-وما اسم هذه السمكة التي أمامنا في الطبق يا «فريدة»؟!

-هذه موسى يا «غادة».

ردد «علاء»:

-موسى.. سليمان. ما حكايتنا مع أنبياء بني إسرائيل؟

علقت «فريدة»:

-فعلا يا «علاء»، لكن دعني أسأل: ما العلاقة بين موسى وسليمان؟

-موسى وسليمان؟

رددت مدام «بثينة»، والدة «فريدة»، ثم أردفت:

-تابوت العهد الذي يُسمى أيضا «تابوت الميثاق» أو «تابوت السكينة» كما ذُكر في سورة البقرة عند الحديث عن طالوت( ) والهيكل الذي سُمي في بدايته أيام نبي الله موسى، تقريبا عام ١٤٤٠ قبل الميلاد، «خيمة الاجتماع». قرأت كتابا عن هذا الموضوع. أراد نبي الله داوود أن يبني الهيكل، لكن الله أخبره أن ابنه، «سليمان» هو من سيرفع قواعده ويتم بناءه.

-ألا يمكن أن تكون هذه «إسرائيليات» يا خالتي؟!

-أحد عيوبنا الآن يا «غادة» أن أي شيء لا نريد أن نصدقه ننسبه للإسرائيليات. دعيني أسألك سؤالا: ما اسم الأخ الأصغر ليوسف الصديق الذي استبقاه

الفرعون؟

-أظن «بنيامين». شاهدت ذلك في مسلسل إيراني عن نبي الله يوسف.

-ومن أين عرف الإيرانيون اسمه؟

-من التوراة.

-لذا قال الرسول: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

-والهيكل؟

-أراد داوود، عليه السلام، أن يقيمه، لكن الله أخبره بأن ابنه «سليمان» هو من سيرفع قواعده. يحلو للبعض انطلاقا من نقطة رفض الإسرائيليات تلك أن يصف «هيكل سليمان» بالهيكل المزعوم، مع أن القرآن نفسه أشار إليه.. «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ»( ). هناك فرق بين أن ننفي وجود الهيكل بالكلية وأن ننفي وجوده تحت المسجد الأقصى. يجب على المسلمين والعرب أن يركزوا على النقطة الأخيرة، خاصة أن حفريات الإسرائيليين تحت المسجد المبارك لم تصل إلى شيء.

-وتابوت العهد هذا يا أمي، أين هو الآن؟

-قيل إنه مدفون في مدينة «تانيس» القديمة بمصر وإن «هتلر» أرسل بعثة

ألمانية للتنقيب عنه، وقيل: وُجد في مقبرة «توت عنخ آمون»، وقيل: ظل لفترة في جزيرة «إلفانتين» بأسوان، وقيل إنه موجود بالقرب من المكان الذي اكتُشفت فيه «مخطوطات البحر الميت»، وقيل: في بلدة «رينيه لو شاتو»( ) بفرنسا، وقيل: ربما حازه الملك آرثر..

-الذي ارتبط اسمه بالكأس المقدسة يا خالتي؟

-نعم، هذا على الرغم من أنه شخصية أسطورية، وقيل أيضا إنه في منجم بجزيرة «أوك آيلاند»( )، أو في الكنيسة الاسكتلندية في «روسلين»( ) وقيل: يعرف مكانه «الماسونيون» وإنه تحت مبنى «البنتاجون» وقيل: في جنوب أفريقيا.

-فعلا يا أمي، الروائي الإنجليزي هينري هاجارد( ) أشار إلى جنوب أفريقيا عام ١٨٨٦ في روايته الشهيرة «كنوز الملك سليمان»( ).

-وقيل: تحت جبل «تارا» في أيرلندا، وإن التعبير الإصلاحي «يجد وعاء الذهب في نهاية قوس قزح» يشير إليه..

-حقا؟! To find the pot of gold at the end of the rainbow. اممممم.. لم أكن أعلم ذلك يا أمي.

-بل وذهب البعض يا بنتي إلى أنه في أحد كهوف مكة، وأن النبي «أرميا»

هو من قام بإخفائه حين توجه إلى هناك بأمر من الله لينقذ «معد بن عدنان» ويحمله معه إلى «حران».

-ما شاء الله يا خالتي! ما هذه المعلومات كلها؟!

-خالتك يجب أن تأخذ قيلولة الظهيرة. شكرا لك يا بني على دعوة الغداء. كلفت نفسك، وهذا واجب علينا.

-العفو. خيرك سابق يا «طنط».

-حسنا يا أمي، هيا بنا. نراك في المساء يا «مدحت».

-سلام يا «مدحت». تذكر.. توقفنا عند التابوت والهيكل.

-حسنا يا «غادة». إلى اللقاء يا «علاء».

بالفعل التقى الأربعة بعد ساعات. افتتحت «فريدة» الجلسة قائلة:

-شباب.. عرفنا الكثير عن زمن الخريطة ومحتواها. الحقيقة لم نترك فيها رمزا إلا سبرنا غوره وأمطنا اللثام عن مكنونه، لكن على الرغم من ذلك ليس لدينا قصة. ليس لدينا حدث. ليس لدينا شخوص كما أشار «علاء» آنفا، نقلا عن «أرسطو».

أطبق الصمت على الجميع. صمت مشوب بشيء من الإحباط وخيبة الأمل.

أمسك «علاء» بخيط الحديث قائلا:

-فعلا يا «فريدة»، حتى الآن ليس لدينا رواية للأسف الشديد، لكن دعونا نعُد للقدس.. تابوت العهد والهيكل. الخط «١» - «٢». من، أو بالأحرى ما، الذي انتقل من «أورشليم» إلى روما؟

-بطرس الرسول؟

قالتها «فريدة» بنبرة جازمة. أضافت:

-نعم.. بطرس، أحد حواريي السيد المسيح الذي صلبه «نيرون». سمعت اليوم في «وادي النطرون» أنه توجه إلى روما وأنه مؤسس كنيستها، «الفاتيكان» حاليا. لا تنسوا أيضا أن الرومان كانوا يحكمون «أورشليم» في زمن المسيح. في الحقيقة استمرت المرحلة الرومانية للقدس من عام ٦٣ قبل الميلاد حتى ٦٣٧ ميلادية.

قاطعها «مدحت»:

-كلام سليم، لكن لو افترضنا أن المسيحية انتقلت من «أورشليم» لروما لإسبانيا، هل يمكن أن نقبل أن المسيحية انتقلت من إسبانيا للشام ثم للحجاز؟! لا بالطبع، هذا ينسف الفرضية من أساسها. لنعُد إذًا لتابوت العهد

والهيكل.

تدخلت «غادة» بالحديث:

-هل تذكرون لعبة بنك الحظ؟

هز الجميع رؤوسهم بالإثبات. تابعت «غادة»:

-ينبغي علينا أن نجد علاقات وتكتلات بين هذه الأصقاع، وبدلا من أن نقترض من البنك لشراء المدن نتبادل الأفكار ونضعها في سياقات وأطروحات ذات مغزى.

(٨)

«في لعبة بنك الحظ يمكنك أن تحتكر مدينة وأن تبيع أخرى، لكن الواقع مختلف».. هكذا أطرق «علاء» مفكرا قبل أن ينطلق لسانه قائلا:

-أرى أن نترك الخط «١» - «٢» ونركز في الخط «٣» - «٤». إنه أطول خط في الخطوط السبعة. مسار مدهش ومثير. بين الأندلس والشام علاقة ثابتة تاريخيا. دمشق كانت حاضرة الخلافة الأموية، والأمويون هم من فتحوا الأندلس. قرأت منذ سنوات خلت في دار الكتب شيئا عن فتح الأندلس، كتاب ذكر شيئا عن كنوز أو ما شابه تخص الملك سليمان حملها المسلمون من الأندلس إلى حاضرة الخلافة في دمشق.

علقت «غادة»:

-قلت: الملك سليمان؟

-نعم.

-يمكنني مساعدتك باستخدام الإنترنت على الرغم من بطئها هذه الآونة. لنكتب في محرك البحث: «كتب عن فتح الأندلس». دعنا نرَ: «الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب»؟

هز «علاء» رأسه بالنفي. تابعت «غادة»:

-«نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» للمقري؟

-ربما.

-«البيان المغرب في الأندلس والمغرب» لابن عذاري؟

-لا.

-«فتوح مصر والمغرب» لابن عبد الحكم؟

-لا أعتقد.

-«المعطار في خبر الأقطار» للحميري؟

-لا، لم أسمع عنه.

-هناك أيضا «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني؟

-ماذا؟

-«آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني.

-أعتقد. هذا هو.

عقبت «فريدة»:

-من المحتمل أن نجد له نسخة إلكترونية. دعيني أحاول يا «غادة».

مرت قرابة نصف ساعة انشغل خلالها «مدحت» في دراسة خريطة البحر المتوسط، بينما انهمك «علاء» في تسجيل بعض الأفكار في مفكرته، وحاولت «غادة» استعادة مهارتها في صنع عقدة سليمان باستخدام جزء من حبل بالٍ. بالفعل نجحت «فريدة» في تنزيل كتابي «المقري» و«القزويني» من موقع «فور شيرد»( ). خاطبت «علاء» قائلة:

-ها قد انتهيت من تحميل الكتابين. سنتركك معهما بعض الوقت يا «علاء» علك تتذكر ونشغل أنفسنا في فحص الزجاجة.

-أي زجاجة؟

-القارورة التي وجدها «مدحت».

-لِمَ؟

-لقد عنَّ لي أن أفحصها بالعدسة المكبرة. شغلتني الرقعة الجلدية عن القيام بذلك.

بالفعل انهمك «علاء» في تصفح الكتابين. قامت «غادة» تعد الشاي. أما «فريدة» و«مدحت» فانكبا على فحص الزجاجة، لكن سرعان ما تركتها «فريدة» في يد «مدحت» وقامت تفحص ألغازه وأوراقه التي جمعها وأعاد ترتيبها. نظرت «فريدة» إلى «مدحت» وفي يدها بضع أوراق سائلة:

-هل هذه قصص «ماجيندا»؟

رد «علاء» وهو منهمك في فحص القارورة:

-أجل.

جلست «فريدة» تقلب في الأوراق. استرعى انتباهها قصة بعنوان «الندم»( ) تتحدث عن امرأة تُدعى «أورلي» فاتها قطار الزواج. أخرجت هاتفها وصورتها. مضت نحو ساعة حين استدعى «علاء» أصدقاءه على عجل:

-أظن أنني وصلت.

ردت «غادة»:

-جميل. هلم بنا.

سألت «غادة» «مدحت»:

-هل وجدت أي شيء على القارورة؟

-لا شيء سوى رأس صقر على السطح الخارجي لقاعدة الزجاجة. الحقيقة هو ليس رأسا مكتملة؛ فقط عين ومنقار مقوس يُشبه منقار الصقر أو أحد الجوارح.

-غريبة!

-فعلا، لكن دعونا الآن من القارورة. ماذا لديك يا «علاء»؟

-سألخص ما كتبه «المقري» و«القزويني». تعرفون أن موسى بن نصير فتح المغرب العربي حتى وصل إلى «طنجة». أرسل موسى بن نصير طارق بن زياد إلى الأندلس...

قاطعت «غادة»:

-الذي حرق السفن؟

-لا أدري يا زوجتي. ربما كانت تلك إحدى الأساطير المدسوسة في كتب وزارة التربية والتعليم.

-حسنا، قلت أرسل موسى طارق إلى إسبانيا لـ...

-نعم، ليناوش أهلها ويقف على حقيقتها وإمكانية فتحها، طالبا منه ألا يتوغل فيها. كان لحاكم مدينة «سبتة»، «جوليان»، ابنة جميلة اسمها «فلوريندا».

قاطع «مدحت» قائلا:

-زرت «سبتة». مدينة جميلة ترزح الآن تحت الحكم الإسباني.

-بالضبط يا قبطان.

علقت «فريدة» أيضا:

-أتذكَّر أني شاهدت مسلسلا عن «فلوريندا» تلك، أظن «ملوك الطوائف» أو «الطارق».. لا أتذكر.

قالت «غادة» بشغف:

-أكمل يا «علاء».

-أرسل «جوليان» ابنته «فلوريندا» للتعلم في «توليدو» أو «طليطلة» لأنها كانت من أهم مدن «القوط».

-القوط الذين يُنسب لهم الفن والعمارة القوطية؟

-نعم يا «فريدة». أصلهم قبائل «جرمانية». في الحقيقة لقد غيَّرت القبائل «الجرمانية» تاريخ أوروبا بالكامل وساعدت كثيرا في نهضتها. جنس متميز

ومبتكر.

-حسنا. وبعدُ يا «علاء»؟

-ما حدث يا قبطان أن حاكم هذه المدينة «رودريك»( )، الذي سماه العرب «لذريق»، اغتصبها. قرر حاكم «سبتة» أن ينتقم منه فمهَّد السبل لطارق بن زياد ليتوغل في الأندلس، وأسر له بمكان كنوز «طليطلة» نكايةً في «لذريق» ولم يهدأ حتى قُتل الأخير في عام الفتح نفسه. يُقال أيضا إن يهود الأندلس دعموا طارق مقابل الأمان لهم ولممتلكاتهم.

قاطعته «فريدة» سائلة:

-لكن ما علاقة كنوز «طليطلة» بالخريطة؟

-على رسلك يا «فريدة»، سأشرح لك.

أخذ «علاء» رشفة من كوب الشاي الذي برد تماما ثم واصل:

-نعود بالزمن إلى الوراء قليلا. حين تولى «لذريق»، آخر ملوك «القوط»، حكم «طليطلة» وقرر فتح «الساكراريوم» أو «غرفة الأسرار» أو «باب المزاليج»...

صاح «مدحت» متعجبا:

-باب المزاليج؟!

-نعم. تقول الأسطورة إن «هركليز» قدم «توليدو» ليُخفي أسرار قوته، وإنه شيَّد هناك برجا أو نحت كهفا. شيء من هذا القبيل. هذا هو المكان الذي نتحدث عنه. استمع إلى نص ما كتب «القزويني»: «وكان بها (أي: طليطلة) بيت الملوك، كل من مات من ملوكها ترك تاجه في ذلك البيت، وكُتب عليه عمر صاحبه ومدة ولايته، وكان بها بيت آخر مَن مَلك من ملوكها قَفل عليه قفلا، ووصى لمن يكون بعده ألَّا يفتح ذلك البيت، حتى انتهى الملك إلى رجل اسمه (لذريق)، دخل البيت الأول فوجد فيه أربعة وعشرين تاجا على عدد ملوكهم، ووجد على باب البيت الآخر أربعة وعشرين قفلا، ظن أن فيه مالا فأراد فتحه فاجتمعت الأساقفة والشمامسة وعظموا ذلك، وسألوه أن يسلك مسلك الملوك الذين كانوا قبله، فأبى إلا فتحه، فقالوا له: أيها الملك، انظر فيما يخطر ببالك من مال تراه فيه لندفعه إليك ولا تفتحه. فأبى إلا فتحه. فلما فتحه إذا في البيت صور العرب على خيولهم بعمائمهم ونعالهم، وإذا فيه مكتوب: الملك فينا ما دام هذا البيت مقفلا، فإذا فُتح فقد ذهب المُلك! فندم (لذريق) على فتح الباب، فدخلت العرب بلدهم في السنة التي فُتح فيها الباب في أيام الوليد بن عبد الملك». رأى «لذريق» أيضا حصانا أبيض يُشبه فرسه، «أوريليا»، لكن بلا جواد، فأدرك أنه هالك. على الرغم من ذلك تقول الأهازيج الإسبانية إن «لذريق» اختفى من ميدان المعركة مخلفا

خفيه الذهبيين المرصعين بالزمرد على شاطئ أحد الأنهار، وإن هذا النهر حمله للمحيط حيث عاش في جزيرة صغيرة.

علقت «فريدة»:

-هل يمكن أن نصدق ذلك؟! أشعر أننا أمام أسطورة.

-صحيح أن كتب التاريخ مليئة بالأخطاء والمغالطات؛ فمثلا عدد ملوك «القوط» كان ثلاثة وثلاثين وليس أربعة وعشرين كما ذكر «القزويني»، لكن ليس أمامنا إلا أن نفعل ذلك. تمهلي ودعيني أكمل الحكاية.

-حسنا. كلي آذان مصغية.

-رفض «لذريق» إذًا أن يضع قفلا على الباب، بل فتحه ليكشف النقاب عن محتوياته. يُقال إنه لم يكن أساسا من العائلة المالكة، وإنه اغتصب العرش لنفسه من والد زوجته، الملك «غيطشة»؛ لذا لم يُبدِ اهتماما بتراثهم وأسرارهم وتقاليدهم. ننتقل هنا لـ«المقري» الذي يقول إن طارق بن زياد غنم كنوزا عظيمة من هذا القصر وتلك الحجرة تحديدا ربما تعدل كنوز «قارون» أو كنز «جرهم» الذي وجده «عبد الله بن جدعان»، لكنه بحث عن أهم نفائس إسبانيا فلم يجدها.

-أهم نفائس إسبانيا؟!

-نعم يا «غادة». ذلك الكنز الذي أسر له به «جوليان».

-ما هو؟

-مائدة سليمان.

خيَّم صمت الدهشة على المكان لبعض الوقت، الذي قطعه «مدحت» قائلا:

-قلت: سليمان؟

-نعم يا «مدحت».

-زوجك عبقري يا «غادة».

-فعلا!

-ألم أقل لك يا «فريدة» انتظري؟

-حسنا. أكمل بالله عليك. لا أستطيع الصبر.

-أحيلكم لما كتب «المقري» من جديد عن هذه المائدة التي عدت أهم كنوز إسبانيا بل والعالم أجمع. يقول «المقري» إن الإمبراطور الروماني «تيتو» هو من حملها من «أورشليم».

عقبت «غادة»:

-يجب أن نعلم كيف وصلت المائدة إلى روما.

-وكيف انتقلت من روما إلى «طليطلة»؟

-بالضبط يا «مدحت». وما علاقة عقدة سليمان بمائدة سليمان؟

علقت «غادة»:

-حسنا جدا. لدينا واجب منزلي لنقوم به في الصباح. من الجيد أننا لا ننوي الذهاب إلى أي مكان.

-حسنا. نلتقي غدا إذًا. إلى اللقاء يا «مدحت».

-مع السلامة يا «علاء». لقد كنت متألقا اليوم.

-شكرا لك.

-نراك لاحقا يا «مدحت».

-مع السلامة يا «فريدة».

(٩)

في غرفة نومهما بالطابق الثاني من الشاليه، أشار «عـلاء» إلى طريق الإسكندرية - مطروح الذي يقع قبلي القرية السياحية قائلا:

-تخيلي يا «غادة» أن عقبة بن نافع سلك هذا الطريق حين أزمع على فتح المغرب العربي.

-حقا؟

-نعم. تذكرين المنارة الموجودة في منطقة الكيلو واحـد وعشرين بالإسكندرية؟

-نعم.

-لقد أقيمت تخليدا للجيش العربي الذي سلك هذا الطريق. تُسمى «منارة الأندلس».

-أنا مبهورة بك وبعلمك.

-أرأيت أن القراءة شيء طيب؟

-فعلا.

-يقولون إن المرأة التي تقرأ لا يتحكم فيها رجل.

-جميل.

-أنا أيضا سعيد لأنك بدأت تشاركينني اهتماماتي، ولا أخفيك سرا أني تعلمت منك حب الرياضة، وأني معجب برشاقتك.

-فقط؟

-لا أفهم.

-رشاقتي فقط؟

-ولباقتك.

-فقط؟

-اسمعي. لديَّ عمل الليلة. أريد أن أتصفح الكتابين برويَّة أكثر لأستخرج منهما تفاصيل قد تساعدنا في البحث.

-على جثتي.

-ماذا تقصدين؟

-لن أتركك. أنت لي الليلة. لي وحدي.

-هل أنت جادة فيما تقولين؟

-لم أشتَق يوما إلى هذا الشيء قدر اليوم.

-حقا؟

-وأريد أن أفعله في الشرفة البحرية على صوت الأمواج. إنها آمنة تماما.

-هل أنت مجنونة؟!

-كنت مجنونة حين اعتقدت أن الفراش وحسب هو المكان الوحيد لإقامة العلاقات الحميمة. لا بأس ببعض الجنون في حياتنا، ولا بأس أيضا ببعض الحماقة والطيش.

-تغيرت كثيرا يا «غادة» في وقت قياسي.

-أدركت كم كنت مخطئة. لا تلُم امرأة تريد أن تحافظ على زواجها وتحتفظ بزوجها. المهم أن نبدأ صفحة جديدة وأن نلتقي في وسط الطريق.

-طبعا سنلتقي؛ لأنني أيضا راجعت الكثير من تصرفاتي وأعدك ألّا آتي بما

يغضبك مستقبلا.

جلست «فريدة» في الشرفة على مقعدها «البامبو» الأثير ثم أخرجت هاتفها وراحت تقرأ القصة التي ترجمتها أخت «مدحت». تصف الكاتبة السيدة «أورلي» قائلة:

«تمتعت الآنسة أورلي بقوام ممشوق وشكل حسن، بخديها المتوردين وعينيها الماضيتين وشعرها البني الذي أخذ الشيب يدب فيه. كانت تضع قبعة شبيهة بتلك التي يرتديها الرجال في تنقلها بين ثنايا المزرعة، وتضع في الأيام الباردة معطفا قديما أزرق اللون من معاطف الجيش وحذاء ذا رقبة عالية في بعض الأحيان. لم تداعب فكرة الزواج خيال الآنسة أورلي مطلقا ولم تطارح شخصا الغرام أبدا. عندما كان عمرها عشرين ربيعا تلقت عرضا بالزواج لكنها رفضته على الفور ولم تندم أبدا على ما فعلت حتى بعد أن وصلت سنها إلى الخمسين. ظلت بمفردها في هذا العالم لا يؤنس وحدتها سوى كلبها بونتو والفلاحين السود الذين يعيشون في أكواخ المزرعة ويباشرون محاصيلها، بالإضافة إلى الدواجن وبضع بقرات وبغلين وبندقيتها التي تذود بها عن الدجاج وتبقي الصقور بعيدا، وفوق هذا وذاك دينها».

مضت القصة لنعلم منها أن جارة الآنسة «أورلي» طلبت منها رعاية أطفالها

الأربعة في أثناء سفرها المباغت لرؤية أمها المريضة. انقبض قلب «أورلي»، لكنها قررت التعامل مع الموقف بمساعدة خادمتها. بعد انقضاء بضعة أيام كانت «أورلي» قد اعتادت التعامل مع الأطفال وشعرت بدفء الأمومة. شعرت أن داخل كل امرأة أمًّا، وأن حياة المرأة تبقى دوما ناقصة دون أن تتزوج وتنجب حتى لو وُضِعت مباهج الدنيا كلها تحت قدميها. عادت جارتها بعد أسبوع لتشكرها وتأخذ أطفالها. فجأة حل الصمت وسادت الكآبة على منزل «أورلي» من جديد.

«راحت السكرة ومضى الجميع وحل بالمكان الصمت وخيَّم عليه السكون! وقفت الآنسة أورلي في الشرفة وقد استنفرت بصرها وسمعها. غابت الكارة عن ناظريها. أرخى الغروب والشفق بألوانهما الحمراء والزرقاء والرمادية ستارة بنفسجية على الحقول والطريق فحجبته عن الرؤية. أصغت لكنها لم تسمع صوت صرير العجلات، وكل ما التقطته أذناها بصعوبة هو صيحات الأطفال المرحة. ولت الآنسة أورلي وجهها شطر المنزل. كان في انتظارها عمل كثير نتيجة للفوضى العارمة التي خلفها الأطفال وراءهم، لكنها لم تبدأ مباشرة في تسوية هذا الأمر. جلست بجوار الطاولة. جالت ببصرها عبر الحجرة التي تسللت إليها غيوم المساء وحلكته حتى احتوتها في عزلتها ووحدتها الموحشة. وضعت يدها على خدها وأجهشت في البكاء والنحيب

حتى تمزق نياط قلبها فلم تنتبه إلى بونتو وقد راح يلعق يدها».

صدق حدس «فريدة»، فلقد أرسلت لها القصة الإشارات المطلوبة وجعلتها تهب واقفة لتفحص وجهها وشعرها في المرآة. جافى النوم عيني «مدحت». نظر في ساعته ثم اتصل بـ«فريدة»، لكنه أغلق الهاتف بعد رنة واحدة. نظرت «فريدة» إلى هاتفها ثم اتصلت به سائلة:

-هل اتصلت بي؟

-نعم. توهمت أنك نائمة فأغلقت مباشرة.

-لا، لست نائمة. هل أنت بخير؟

-أنا بخير. فقط جافاني النوم.

-تفكر في كنزنا؟

-أفكر في الكنز الذي لا يفنى.

-القناعة؟!

-ليس بالضبط.

-إذًا ما هو؟

-هل يمكن أن أراك لحظة في حديقتك؟

-بالطبع.

-حسنا.

خرج «مدحت» لمقابلة «فريدة» وهو يردد في سره ما كتبه توفيق الحكيم في مسرحية «سليمان الحكيم». أراد أن يقرأ عن النبي سليمان فوجد هذا الكتاب على «الإنترنت» فحمله. يقول: «قد يسهل عليك فتح كنز من الكنوز، أو حصن من الحصون، أو طلسم من الطلاسم، لكن القلب.. القلب».

مد يده مسلما عليها. احتفظ بيدها لفترة في يده. تلعثم لبرهة ثم استجمع شجاعته قائلا:

-«فريدة».

-نعم.

-أردت أن أقول لك...

-ماذا؟

-أردت فقط...

-أجل.

-أردت أن أشكرك لأنك أحدثت تغييرا في حياتي، الأمر الذي دفعني للخروج

من المستنقع الذي كنت أعيش فيه.

-لا بأس.

سادت لحظة صمت:

-أهذا كل شيء؟

-لا، ليس كل شيء. مهما فعلت فلن أستطيع أن أرد جميلك.

-لا عليك يا «مدحت». الحقيقة أنت من يستحق الشكر، فلولا القارورة وجلسات الشاليه ما خرجت من شرنقتي وقوقعتي.

-حسنا يا «فريدة». أردت فقط أن أعبر عن امتناني لك. تصبحين على خير.

-وأنت من أهله.

آب «مدحت» بمهمة غير منجزة وقفلت «فريدة» بعلامات تعجب على محياها. كم مرة عبر القرون قال رجل لامرأة «أحبك»؟! مئات الآلاف؟ ملايين المرات؟ لكن هذا لا يمحو التردد والعنت اللذين يمر بهما الرجال حين ينطقون بهذه الكلمة وحين تخرج حقيقة من قلوبهم.

أمضى الأربعة شقا كبيرا من اليوم التالي في البحث. التقى الأصدقاء في موعدهم المعتاد. دشنت «فريدة» الجولة قائلة:

-بما أني مقررة الجلسة، أذكركم أننا أنهينا بحثنا أمس بثلاثة أسئلة: كيف وصلت المائدة من «أورشليم» إلى روما؟ وكيف انتقلت من روما إلى «طليطلة»؟ وما علاقة عقدة سليمان بمائدة سليمان؟

-أريد أن أبدأ.

-تفضلي يا «غادة».

-تقول المصادر التي طالعتها: إن هيكل النبي سليمان ضم سبعا وسبعين مائدة من ذهب جنة عدن مرصعة بالجواهر الكبيرة النفيسة. وقيل: إن الجن والعفاريت هم من صنعوا هذه الموائد. أنا أعتقد أن عدد هذه الموائد هو ثلاث وسبعون وليس سبعا وسبعين.

قاطعت «فريدة» في استغراب:

-وما الذي يجعلك متأكدة من العدد يا «غادة»؟

أمسكت «غادة» بورقة ما زالت تحتفظ بسخونة الطابعة ثم ردت قائلة:

-ما ذكره «ابن منظور» في «مختصر تاريخ دمشق» في وصف عرش سليمان يقول وأنا أقرأ نص كلامه: «صَنع دفوف الكرسي من عظام الفيلة، وفصصها بالدر وبالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، صُنعت صنعة لم يصنع مثلها من مضى، ولا صنعها من بقي بعده، ثم جعل له ست درجات بعضها فوق بعض، وجعل

بين كل درجتين شبرا، وجعل كل درجة منها مفصصة بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وحفف الكرسي من جانبيه كليهما بنخل من ذهب، وعناقيدها ياقوت وزبرجد ولؤلؤ، وجعل رؤوس النخل من أحد جانبي الكرسي طواويس من ذهب، وجعل من جانبه الآخر سورا من ذهب مقابلة للطواويس، وجعل عن يمين الدرجة الأولى شجرة صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسدا من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودا من زبرجد، ومن جانبي الأسدين شجرتين كلتاهما كرم من ذهب معرشتين، فأظلتا الكرسي كله بتعريشهما وورقهما، وفوق أعلى درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب، مجوفان محشوان مسكا وعنبرا.. ومن جانبي الكرسي منبران من ذهب أحدهما مجلس خليفة سليمان، والآخر مجلس الأحبار والقضاة، وسبعون منبرا من ذهب لسبعين قاضيا من أحبار بني إسرائيل وعلمائهم وكهولهم، من كل جانب من الكرسي خمسة وثلاثون منبرا».

-الحديث هنا يا بنت خالتي عن ثلاثة وسبعين منبرا وليس طاولة!

-نعم يا «فريدة». أنا أفترض أنه كان أمام كل منبر طاولة، بالإضافة إلى مائدة سليمان نفسه.

قاطع «مدحت» متشوقا لمعرفة التفاصيل:

-حسنا، وبعدُ يا «غادة»؟

-بعد خراب الهيكل الأول أو «هيكل سليمان» اختفت كل الموائد إلا واحدة، وهي موضوع حديثنا.

عقبت «فريدة»:

-على أي حال ما يهمنا هنا هو هذه المائدة بعينها. العدد لن يفيدنا كثيرا، سواء أكان ثلاثا وسبعين أم سبعا وسبعين.

-تقصدين أن المجهود الذي بذلته في البحث غير مُجدٍ؟!

-لا يا «غادة». لم أقصد ذلك مطلقا. نحن نجتهد معا في الوصول للشكل النهائي للقصة. يُقال مثلا إن مساحة مسطح هذه المائدة وصل إلى ٣٦٥ قدما، وقيل بل كان لها ٣٦٥ رجلًا تُمثل أيام السنة!

-غير معقول! هذه مبالغة.

-أرأيت؟!

تسلَّم «علاء» مقاليد الحديث قائلا:

-فعلا. أشيع أن النبي سليمان كان يتناول طعامه على هذه المائدة تحديدا، بل أشار ابن كثير، في «البداية والنهاية»، إلى أن المائدة التي نزلت على

عيسى - عليه السلام - كانت مشابهة لها، خاصة أن النبي سليمان تحدث عن «مائدة الحكمة» أو «المائدة السمائية» في «سفر الأمثال» قائلا: إن الرب أعدها لمحبوبيه، بني البشر، الذين هم موضع سروره. هناك ربط صهيو - مسيحي بين كنوز سليمان والآثار المنسوبة للمسيح. طبعا ينبغي ألا ننسى أن مريم العذراء أرسلت لخدمة الرب في هيكل سليمان وهي بعدُ صغيرة، وأن هناك من يُرجع نسبها إلى داوود وليس يهوذا كما هو شائع. ثمة من يقول مثلا: إن الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير هي في أصله من مقتنيات سليمان الحكيم تماما مثل المائدة وإنه ظل قرينا لها حتى في «طليطلة».

عقب «مدحت»:

-لا أدري ما خطب التاريخ مع الموائد: مائدة سليمان ومائدة العشاء الأخير والملك «آرثر» وفرسان الدائرة المستديرة ومائدة «شارلمان»!

عاد الحديث إلى «غادة» التي انبرت قائلة:

-والآن إليكم محاولتي للإجابة عن السؤال الثالث..

-العلاقة بين عقدة سليمان ومائدة سليمان؟

-أجل يا «فريدة». لقد قرأت أن المائدة كانت مرصعة بثلاثة صفوف من

الجواهر. أعتقد أن هذه الصفوف أخذت شكل عقدة سليمان على سطح المائدة. يؤكد ذلك أيضا الطريقة التي ظهرت فيها العقد الثلاث على الرقعة الجلدية أو الست بالأحرى.

-الست؟!

-نعم يا «فريدة». انظري إلى هذا الشكل الذي حصلت عليه من «الإنترنت».

-ما هذا؟

-عقدة سليمان الرباعية. ما لدينا على الرقعة في الحقيقة ست عقد.

-لكنها ما زالت ثلاثة فروع.

-أجل، والحقيقة أنها أيضا تشكل مائدة مقلوبة.

-رائع يا «غادة». تحليل ذكي. وأنت يا «مدحت»؟

-أنا شغلني اسم «تيتو». ما أعرفه أن أحد رؤساء يوغوسلافيا سابقا كان اسمه «تيتو».

-أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز؟

-بالضبط يا «فريدة». المهم، بحثت في أباطرة الروم فوصلت إلى «تيطس»( ).

-عاش في الفترة نفسها؟

-بالضبط. غزا «أورشليم» عام ٧٠ ميلادية وهو بعدُ ولي العهد أو ربما حتى مجرد قائد عسكري. عُرف ذلك بالتخريب الثاني للهيكل الذي أعقبه شتات اليهود أو ما يُطلقون عليه هم «الديسابورا».

-ممتاز يا «مدحت». نحن نسير على الطريق الصحيح.

-يتبقى لنا كيف انتقلت المائدة إلى إسبانيا؟

قاطع «علاء»:

-أنا لديَّ إجابة عن هذا السؤال، لكن هذا الأمر يحتاج إلى فنجان من القهوة من يد زوجتي.

-على الرغم من أنك قطعت الإثارة والتشويق، لكني سأعد لك القهوة. وأنت يا «مدحت»، ما قهوتك؟

-سادة.

-لا بأس يا «غادة» سأصنع أنا قهوتي وقهوة «مدحت».

-كما تشائين. هيا أمامي بنا إلى المطبخ.

(١٠)

تناول أصدقاؤنا الأربعة القهوة مع «كيك الشوكولاته» بالمكسرات. علقت «فريدة»:

-ها قد أمددنا أجسامنا بعدد لا بأس به من السعرات الحرارية تعيننا على التفكير. قلت يا «علاء» إن لديك إجابة عن كيفية وصول المائدة إلى إسبانيا!

قاطعت «غادة»:

-لكن قبل إسبانيا أريد أن أعود بكم مجددا إلى القدس.

-لِمَ يا بنت خالتي؟ نحن نريد أن ننطلق للأمام.

-ما زال هناك تساؤل.

-ما هو يا «غادة»؟

-حسنا، نعرف أن «أورشليم»، أو بالأحرى الهيكل، خُرب مرتين: الأولى على يد «نبوخذ نصر» عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وفي رواية ٥٩٧ فيما عُرف بعد ذلك بالسبي البابلي، والمرة الثانية على يد القائد الروماني «تيطس» عام ٧٠ ميلادية..

قاطع «علاء»:

-أتذكر أنني كنت في زيارة للمعبد اليهودي «بوابة السماء» في شارع عدلي بالقاهرة، وعرج حديثي مع أحد السدنة هناك على خراب «أورشليم». يومها قال لي إن الهيكل دُمر ثلاث مرات، وإنه بين خراب «نبوخذ نصر» وخراب عام ٧٠ خراب وقع عام ١٧٠ قبل الميلاد بواسطة «المكدونيين» وإن من أعاد تشييده هو «هيرودوس» عام ٢٠ قبل الميلاد.

-«هيرودوس» الذي أمر بقطع رأس نبي الله يحيى إرضاءً للراقصة «سالومي»؟

-أجل يا «فريدة»؟

واصلت «غادة» غير مكترثة بالمعلومة:

-سواء أكانا خرابين أم ثلاثة، المهم بين خراب الهيكل الأول والهيكل الأخير حوالي... هذه حسبة برما!

-لِمَ يا «غادة»؟ ٦٥٧ سنة. من ٥٨٧ قبل الميلاد إلى ٧٠ ميلادية.

-شكرا يا «مدحت». السؤال هو: أين كانت المائدة خلال هذه السنين كلها؟

أطبق الصمت على الجميع. اعترضت «فريدة» قائلة:

-لكن يا «غادة» ليس مهما أن نعرف أين كانت المائدة. لقد أقام نبي الله سليمان الهيكل الأول قبل الميلاد بعشرة قرون، والموائد كانت جزءا من أثاث المعبد. صحيح أن نيفا وسبعين مائدة اختفت نهائيا، لكن هذه المائدة تحديدا ظلت في «أورشليم» بين الخفاء والعلن من هيكل سليمان تقريبا سنة ٩٥٠ قبل الميلاد وحتى عام ٧٠ ميلادية حين خرجت لأول مرة من «أورشليم» على يد القائد الروماني «تيطس». المهم أننا حددنا نقطة البداية وهي القدس وعرفنا أنها انتقلت لروما فـ«طليطلة».

-وكيف تطمئنين أيتها الباحثة المحترمة إلى أننا نسير بقدم ثابتة إذا أغفلنا هذه القرون من عمر المائدة؟

-يا «غادة»، الإحصاءات تقول: إن القدس حوصرت حتى الآن ثلاثا وعشرين مرة وهوجمت نيفا وخمسين مرة واستُعمِرت أربعا وعشرين مرة. هل هناك مدينة على وجه الأرض تعرضت لهذه الأحداث والمتغيرات كلها؟! ثم لا تغفلي أن عملنا يعتمد عل الفرضيات أكثر من الحقائق أو أننا نمزج هذه

بتلك.

-أعرف أنه لا يوجد من يمتلك الحقيقة المطلقة، وأن هناك من قد ينظر إلى حديثنا على أنه كلام مرسل، لكني لا أريد أكثر من فرضية علمية منطقية. هل سمعت عن جبل الذهب الذي ينجلي عنه الفرات في آخر الزمان؟

-أجل.

-هل تعلمين أن هناك من يعتقد أن جبل الذهب هذا ما هو إلا كنوز سليمان التي حملها البابليون إلى العراق؟ أطنان من التبر وعشرة أسود بالحجم الطبيعي من الذهب الخالص.

-حقا؟!

-وأن هناك من يزعم أن كنوز كسرى هي جزء من بقايا أغراض النبي سليمان، ومنها سواره الذي حازه سراقة بن مالك؟

-لم أكن أعرف ذلك.

علق «علاء» قائلا:

-رائع يا «غادة». لا تتخيلي مدى إعجابي بطرحك. أنا جد فخور بك.

-حقا يا «علاء»؟

-بكل تأكيد.

تدخل «مدحت» ليفك الاشتباك:

-حسنا، راحة لاحتساء «النسكافيه» علّه يساعدنا على التفكير.

أمسك «علاء» بـ«ريموت» التلفاز وراح يُقلب القنوات بسرعة ثم عاد وأغلقه. أخذ يبحر في محركات البحث بنظرية المتلازمات أو المتصاحبات: «مائدة سليمان/ الهيكل»، «مائدة سليمان/ التوراة»، «مائدة سليمان/ السبي البابلي»، «مائدة سليمان/ القرآن»، «مائدة سليمان/ حديث الرسول».. وهكذا. دوَّن بعض الملحوظات وهو يحدث نفسه عن أهمية وعظمة الشبكة العنكبوتية التي تقدم لك المعلومة وأنت في مكانك لا تبرحه. «الإنترنت» حصرت المغامرة في محركات البحث. أخذ «علاء» يحتسي «النسكافيه» وهو يردد كلمات البحث: «السبي البابلي، التوراة، الألواح، الوصايا العشر، العزير».. العزير. صاح:

-العزير!

-من؟

-العزير يا «غادة»، صاحب الحمار.

-ماذا؟!

-اسمعوا يا جماعة.

-امممممم.

-حين سُبي اليهود في بابل تمكَّن رجل من الفرار على حماره اسمه العزير بن شرخيا. عاد ليجد «أورشليم» في حالة يُرثى لها فتعجب قائلا: «أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا»( ). أماته الله مائة عام. بعد مرور سبعين سنة من نومه عاد بنو إسرائيل وعمَّروا «أورشليم» من جديد. بعد ثلاثين سنة من عودة اليهود بعث الله «العزير» من مرقده.

-مثل أهل الكهف؟

-أجل يا «مدحت»، لكنه قبلهم.

-ثم؟

-قام الرجل ليجد «أورشليم» قد دبت فيها الحياة من جديد.

-وبعدُ يا زوجي العزيز؟

-كان اليهود قد أخفوا الألواح في مكان ما قبل أن يُساقوا إلى العراق. المهم أن «العزير» استطاع تحديد المكان وإخراج الألواح.

-جميل. والتابوت؟

-يُقال إن النبي «إرميا» أخفاه في مغارة.

-والمائدة؟

-بناء على ما تقدم، لا بد أن أشياء أخرى قد تم إخفاؤها وربما تكون منها المائدة.

علقت «فريدة»:

-امممممم. أطروحة لا تخلو من وجهة نظر. يعني أن «العزير» عاد عام ٤٨٧ أو ٤٩٧ قبل الميلاد فأخرج الألواح وأشياء أخرى. تمت إعادة بناء الهيكل عام ٥١٥ قبل الميلاد، ومن ثم عادت المائدة إليه حتى ٧٠ ميلادية.

-بالضبط.

-حسنا. لم يبق لنا إذًا إلا أن نعود مع «علاء» مرة أخرى وكيفية انتقال المائدة من روما إلى «طليطلة».

-ليس بعدُ يا «فريدة».

-لِمَ؟

-فقط قبل أن أخوض في ذلك وللأمانة العلمية أقول: إني وجدت حديثا

للرسول ينسف الرقعة الجلدية برمتها.

-أنت وزوجتك ضدنا اليوم.

عقبت «غادة»:

-معقولة؟ أي حديث يا «علاء»؟

سأل «مدحت»:

-ماذا يقول هذا الحديث؟

-لا تقلقوا، فكما وجدت العقبة وجدت المخرج منها، وإنما أذكرها فقط حتى تكون الصورة مكتملة، وحتى لا نغفل جانبا من جوانب البحث.

عقبت «فريدة»:

-حسنا، الكلمة لك.

-عن تميم الداري قال: «قلت يا رسول الله: ما رأيت للروم مدينة مثل مدينة يُقال لها أنطاكية، وما رأيت أكثر مطرا منها». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم، وذلك أن فيها التوراة وعصا موسى ورضراض الألواح ومائدة سليمان في غار من غيرانها». ويمضي الحديث فيشير إلى أن من يستخرج التابوت من الغار هو المهدي المنتظر.

-أنطاكية؟

-نعم يا «غادة». مدينة تتبع تركيا الآن. بها كنيسة تُعد من أقدم الكنائس. عُقد بها مجمع كنسي عام ٢٨٠ ميلادية.

قاطع «مدحت»:

-لكن الرقعة الجلدية لا تُظهر أنطاكية تلك.

-ولذلك قلت إن وجودها ينسف البحث برمته.

تدخلت «فريدة»:

-دعه يُكمل يا «مدحت».

-حين انقسمت الإمبراطورية الرومانية عام ٢٨٦ ميلادية إلى الإمبراطورية الغربية في روما والإمبراطورية الشرقية أو البيزنطية في القسطنطينية، وقعت أنطاكية في الإمبراطورية الشرقية. حاولت الكنيسة الرئيسية في كلتا الإمبراطوريتين تقوية نفوذها، وكانت إحدى الوسائل لفعل ذلك الزعم بوجود آثار مقدسة يهودية ومسيحية في حوزتها: رفات قديسين، جزء من الصليب الذي يعتقد النصارى أن عيسى صُلب عليه والذي اختفى في ظروف غامضة بعد تأسيس مملكة «أورشليم» بأربعين عاما... إلخ.

-تقول «الزعم». هل يعني ذلك أن هذه الآثار لم تكن حقيقية؟

-جزء كبير منها يا «غادة» كان مزيفا. ليس كل البقايا والآثار «المقدسة»، بين قوسين، صحيحة، بما في ذلك الأشياء المنسوبة للرسول عليه الصلاة والسلام.

-معقولة؟!

-نعم.. الناس هم من يخلقون الوهم ويتوهمون الخرافة. علينا أن نبحث دائما وأبدا عن المستفيد. دعيني أعطِكم مثالا على ذلك. خلال الحملة الصليبية الأولى زعم كاهن فرنسي اسمه «بيتر بارثولوميو» أنه رأى في المنام من يقول له اذهب إلى كنيسة أنطاكية واحفر في الموضع كذا ستجد الرمح الذي طُعن به يسوع وهو على الصليب. أراد تهييج مشاعر الناس الدينية التي حين تتحرك يصعب التحكم فيها. يبدو أن هذا القديس كان قد أخفى قطعة حديد قبل أن يذهب ليستخرجها. عام ١٠٩٩ عُرض للنار في تجربة مثل «البشعة» حتى يثبت صدقه فيما يختص بالحربة. ما حدث أن النار تركت فيه إصابات بالغة أودت بحياته.

-ما تؤكده هذه الحكاية هو إمكانية دس خرافات وأحاديث ضعيفة في هذا الاتجاه.

-بالضبط يا «فريدة».

قاطعت «غادة»:

-هذا لو كان المتكلم مسيحيا، وليس صحابيا.

-صحيح يا «غادة». سألت إمام مسجد القرية هنا، وهو رجل أزهري، عن تميم الداري.

-وماذا قال لك؟

-أخبرني الشيخ يا «فريدة» أنه كان نصرانيا قبل أن يُسلم عام ٩ هـ.

-كونه مسيحيا أفضل من أن يكون وثنيا.

-وهذا أيضا صحيح يا «مدحت»، لكن الشيخ أخبرني أنه صاحب حديث «الجساسة والمسيخ الدجال»، وهو من أكثر الأحاديث التي اختلف عليها المسلمون، وهو في مجمله ضعيف، مثله في ذلك مثل أحاديث الفضل: في فضل مدينة كذا وثغر كذا.

-وماذا قال الشيخ عن الحديث الذي أوردته؟

-قال لي إنه ضعيف يا «غادة».

عقَّب «مدحت»:

-ربما دسه النصارى وانتقوا له راويا سبق أن روى أحاديث أثارت جدلا.

-والهدف؟

-الهدف يا «فريدة» هو إعلاء شأن أنطاكية وكنيستها.

-لكنهم لا يؤمنون بمحمد أصلا!

استعاد «علاء» طرف الحديث قائلا:

-فعلا يا «غادة»، لكن الفضل دائما هو ما يشهد به الأعداء. البديل الآخر هو أن نفترض أن تميم الداري نفسه هو من دس الحديث، وقد مات للعلم – كما أخبرني الشيخ - في الشام عام ٦٦٠ ميلادية بعد ثمانية وعشرين عاما من وفاة الرسول. هناك احتمال ثالث أن يكون الأتراك السلاجقة هم من دسوا الحديث بالقرب من نهاية الألفية الأولى من منطلق شعوبي للإعلاء من قيمة ومكانة أنطاكية.

-وهل لهذا الحديث تاريخ؟

-الأحاديث في مجملها يا «مدحت» ليس لها تاريخ، اللهم إلا إن كان متن الحديث نفسه ينطوي على إشارة تاريخية.

-والمهدي المنتظر الذي سيعثر على المغارة؟

-عشرات من الناس ادعوا المهدويّة حتى الآن. لا عليك.

علقت «فريدة»:

-حسنا. فقط لتطمئن قلوبنا يا «علاء». إذا افترضنا أن الحديث صحيح.

-إذا افترضنا ذلك فإن المائدة الموجودة في غار مجهول بأنطاكية واحدة من السبع والسبعين أو الثلاث والسبعين مائدة، كما أشارت «غادة».

-ولم تُكتشف أو تنتقل من مكانها؟

-نعم يا «فريدة»؛ لأن الأشياء الأخرى التي ذكرت معها لم تخرج إلى حيز النور.

-ولماذا لا نفترض أن بني إسرائيل هم من أخفوا هذه الآثار المقدسة في غار سحيق بأنطاكية؟

-لأن أنطاكية ببساطة ليست أرضا توراتية، كما أنها بعيدة عن «أورشليم». إن أكبر دليل على عدم صحة الحديث أن هناك آخر يفيد بأن عصا موسى في حوزة الدابة التي تخرج في نهاية الزمان( ). حديث ثالث ضعيف الإسناد يقول: «إذا افتتحتم رومية فادخلوا كنيستها العظمى من بابها الشرقي، فاعتدوا سبع بلاطات ثم اقتلعوا الثامنة فإن تحتها عصا موسى». ثم إن هناك من أهل الكتاب من يُطلق على «عصا موسى» تلك «عصا هارون»! أين الحقيقة إذًا يا «فريدة»؟!

-حسنا.. لنترك هذا الأمر ما دام الحديث ضعيفا فلا نشغل أنفسنا به. دعونا نتجول في القرية لنصف ساعة، نعود بعدها لـ«طليطلة».

-بل نعود لروما يا بنت خالتي لنفهم كيف انتقلت المائدة من روما إلى «طليطلة». لديَّ ما أريد طرحه في هذه النقطة.

-حسنا. ليكن ما تريدين.

(١١)

خرج المغامرون الأربعة إلى الهواء المنعش. أحسوا برغبة عارمة في تغيير الجو وعمل شيء مختلف. تأبطت «غادة» ذراع زوجها وهي تقول:

-كنت مذهلا الليلة. من أين تأتي بهذه المعلومات كلها؟!

-من الكتب.

-حين نعود للقاهرة سأضع لنفسي خطة للقراءة كل يوم. سأترك لك ترشيح الكتب لي.

-حبا وكرامة. حين نعود للقاهرة سنغير أسلوب حياتنا بالكامل: طعام صحي ورياضة وقراءة وسفر.

في الناحية الأخرى من الممشى سار «مدحت» بجوار «فريدة». بدأ الحديث قائلا:

-إجازة غريبة!

-فعلا.

-أنهكنا عقولنا بدلا من لعب الورق والدعة والاسترخاء.

-تعب لذيذ.

-دون شك.

-متى ستعود إلى البحر؟

-قريبا. قريبا جدا. لقد شرعت في الإجراءات.

-رائع.

-أقلعت اليوم نهائيًّا عن التدخين.

-ممتاز. تستحق جائزة على هذا القرار.

-هل يمكن أن أختار جائزتي.

قالها وهو يحدق في عينيها. شعرت «فريدة» بالارتباك فغيَّرت مجرى الحديث قائلة:

-تأخرنا عن «غادة» و«علاء». هلم بنا إلى الداخل.

عاد أصدقاؤنا الأربعة إلى الشاليه. بدأ «علاء» بالحديث عن روايته التي يتضخم متنها كل يوم. شكر الحاضرين على مجهودهم وتصوراتهم التي ساعدته كثيرًا، وحتى لو كان فيما طرحوا قدر من التخيل فلا بأس. حياتنا كلها قائمة على شيء من التخيل. الفرضية العلمية التي تصل إلى نتيجة هي فرضية صحيحة حتى لو كانت المخرجات بعيدة عن حقيقة ما حدث، ثم من سيحدد إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت بالفعل أم لا، التاريخ قبل عصر التسجيل الصوتي والصورة أمر نسبي لا يمكن الحكم بصحته تماما أو رفضه على الإطلاق. الشاهد: ما لا يُدرك كله لا يُترك كله.

عاد «علاء» يقبض على خيط الحديث قائلا:

-لقد كانت إسبانيا - لمن لا يعرف منكم - جزءا من الإمبراطورية الرومانية.

-صحيح يا «علاء»، لكن الرومان لم يبجلوا الإسبان كثيرا. كانوا ينظرون إليهم كفلاحين وحسب. ألم تشاهد فيلم «جلادياتور»؟

-بلى يا «مدحت».

سألت «غادة»:

-متى قضى «تيطس» نحبه يا «مدحت»؟ هل لديك فكرة؟

نظر «مدحت» في أوراقه ثم قال:

-٨١ ميلادية.

عقبت «غادة»:

-حسنا، عام ٧٩ ميلادية، وتحديدا في ٢٤ أغسطس، انفجر بركان «فيزوف» فطمر مدنا بأكملها في إيطاليا على من فيها من البشر والمتاع. ما أفترضه هنا أن «تيطس» خاف من اندلاع سلسلة من البراكين فنقل نفائس روما إلى أطراف الإمبراطورية، وكان منها المائدة التي حُملت إلى إسبانيا.

-لا أرتاح كثيرا لهذا التفسير يا «غادة»؟

-لِمَ يا «فريدة»؟ جبل «فيزوف» البركاني يقع شرق «نابولي» وبين نابولي وروما مسافة ليست بعيدة.

-لو أن هذه النظرية صحيحة لنقل اليابانيون مثلا كنوزهم خارج اليابان لأنها من أكثر الدول التي تتعرض للزلازل.

-حسنا، وماذا تقترحين أنت؟

-انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية.

-هذا عنوان كتاب شهير لـ«إدوارد جيبون»( )؟

-بالضبط. أحد أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية هو هجمات قبائل «القوط» الرحل الذين نهبوا روما عام ٤١٠ ميلادية بقيادة «آلريك الأول»( )، من عام ٤١٠ إلى عام ٤١٨ ساح «القوط» في إيطاليا وبلاد «الغال».

-الغال؟!

-فرنسا وبلجيكا يا «غادة».

نظرت «فريدة» في أوراقها ثم استأنفت الكلام:

-ارتحلوا في هذه الأصقاع وبحوزتهم الكنوز التي نهبوها من روما بما فيها المائدة. لقد اتخذوا عواصم كثيرة لهم، منها: «تولوز» و«ناربون» و«برشلونة» و«إشبيلية» و«مـاردة». كانوا بالطبع قد اعتنقوا المسيحية بحلول هذا الوقت، وكان «لذريق» آخر من تربع على عرشهم عام ٧١١. أما المائدة فقد وضعوها في مكان سحيق يذود عنها مخاطر السرقة وينأى بهم عن لعنتها في «طليطلة».

علق «مدحت»:

-يعني ذلك أن المائدة ظلت في روما من ٧٠ ميلادية حتى ٤١٠، وأنها لم تنتقل مباشرة إلى «طليطلة»، أليس كذلك يا «علاء»؟

-بلى يا «مدحت».

-تماما مثلما حدث في القدس. ظلت المائدة هناك من ٩٥٠ قبل الميلاد إلى ٧٠ بعد الميلاد. المكان ثابت والأشخاص متغيرون. والآن المائدة في حوزة «القوط» من ٤١٠ حتى ٧١١ ميلادية. المكان متغير والأشخاص ثابتون.

علقت «فريدة»:

-لكننا يا «غادة» وصلنا أخيرا إلى «طليطلة».

-أعتقد يا بنت خالتي أنه أحرى بك أن تلتفتي إلى هذه التفاصيل الصغيرة لأنك باحثة في المقام الأول. ألم تستمعي إلى «علاء» يقول من قبل إن «القزويني» ارتكب خطأ في عدد ملوك «القوط» لأنهم ثلاثة وثلاثين عوضا عن أربعة وعشرين؟ هذه التفاصيل مهمة وقد تكون مفيدة.

-ما شاء الله عليك يا «غادة». تغيرت كثيرا يا حبيبتي.

أسندت رأسها إلى صدره وهي تقول:

-من أجلك أفعل أي شيء.

نظر «مدحت» إلى «فريدة» نظرة جعلها ترتبك فعادت تمسك بخيط الحديث قائلة:

-أتفق معك يا «غادة». على أي حال هذا لا يمنع أننا الآن في «طليطلة»، أليس كذلك يا «علاء»؟

-نعم. حين دخل طارق بين زياد «طليطلة» حاز كنوزا قيمة، لكنه لم يجد المائدة. قيل إنها كانت في بلدة صغيرة تُدعى «مدينة المائدة»، وقيل بل كانت في قلعة ما. على أي حال تبين أن أسقف «طليطلة»، «سنديرد»( )، هرب بها صوب روما، لكن جنود طارق تتبعوه واستخلصوها منه. حين مثلت المائدة أمام طارق أمر بكسر إحدى أرجلها واستبدل بها أخرى.

-لِمَ؟

-انتظري يا «غادة» وستعرفين.

-لا أستطيع الصبر.

-كان «طارق» متوجسا من موسى بن نصير لأنه توغل في الأندلس بالمخالفة لأوامره مستغلا الخلافات التي وقعت بين الإسبان أنفسهم.

قاطعت «فريدة»:

-تماما كما فعل عمرو بن العاص حين أرجأ لقاءه برسول الخليفة عمر حتى دخل العريش، وكان ابن الخطاب قد أرسل له خطابا يقول في معناه: «إن جاءك هذا الخطاب قبل أن تدخل مصر فعد أدراجك».

-صحيح يا «فريدة»، ولولا «عمرو» ما كان «طارق». أليس كذلك يا «علاء»؟

-بالضبط يا زوجتي الحبيبة. على أي حال صدق حدس «طارق»، فحين قابله «موسى» لامه كثيرا على ذلك.

-لم يكن من الحكمة أن يفعل ذلك، فـ«طارق» كان مفوضا بقرار، والحرب خدعة. وطالما سنحت له فرصة فلا بد من استغلالها.

-تماما يا قبطان. على أي حال هذا ما حدث. أرسل موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك في دمشق يزف له البشرى. بعد استكمال الفتح سار «موسى» و«طارق» إلى دمشق ومعهما الغنائم والجواري والعبيد ليقدما للخليفة فروض الولاء والطاعة. أهدى «موسى» مائدة سليمان لـ«الوليد» ليؤكد للخليفة أنه صاحب الفتح. في هذه اللحظة أخرج «طارق» القائم الأصلي للمائدة فامتقع موسى بن نصير.

-وماذا حدث بعد ذلك يا «علاء»؟

-يُقال يا «مدحت» إن الوليد كان عليلا حين قدم عليه الرجلان يتنازعان فتح «طليطلة» وينسبه كلٌّ لنفسه. يقال أيضا إن الوليد اشتد عليه المرض بعد تسلمه المائدة. يبدو أنه عرف شيئا عن تاريخها المشئوم.

-تاريخها المشئوم؟!

-نعم يا «غادة».

علقت «فريدة»:

-سمعت أن هذه المائدة تحديدا كان عليها رصد.

-رصد؟!

-نعم يا «غادة»، بمعنى: جن يحميها، شيء قريب من «لعنة الفراعنة». أليس كذلك يا «علاء»؟

-ربما يا «فريدة». يُقال إن المائدة كانت من صنع الجن.

علق «مدحت»:

-لكن إذا كان يحرسها جن كيف استطاع طارق بن زياد كسر أحد قوائمها ولم يصب بأذى يا «علاء»؟!

-لا أعتقد أنه نجا تماما من لعنتها.

-كيف؟

-لقد ارتبطت المائدة بأحداث مؤسفة تقع لحائزيها.

-تقصد خرابي الهيكل.

-لا.. أكثر من ذلك بكثير.

-مثل ماذا يا زوجي العزيز؟

(١٢)

«قد تصيب اللعنة الأماكن مثل مدائن صالح والبحر الميت وخلافه، وقد تصيب العائلات مثل عائلة كيندي، وقد تصيب الأشياء مثل مقبرة توت عنخ آمون ومائدة سليمان».. هكذا قدم «علاء» لحديثه عن لعنة المائدة. استطرد قائلا:

-الإمبراطور «تيطس» مثلا وقع في غرام امرأة يهودية هي «بيرنس»( ).. حب أدمى قلبه، حيث اضطر في النهاية إلى التخلي عنها. وطبقا لـ«تلمود بابل» فإن حشرة دخلت في أنفه وعاشت في مخه سبع سنوات.

-قصة مشابهة لما قيل عن نهاية الحجاج بن يوسف الثقفي. سمعت هذا في إحدى خطب الجمعة.

-فعلا يا «مدحت»، لكن حالة «تيطس» كانت من السوء بحيث إنه لم يكن

يوقف طنين الحشرة سوى مطارق الحدادين. لك أن تتخيل العذاب الذي عاش فيه «تيطس». فتحوا مخه بعد موته فوجدوا الحشرة التي اقتاتت عليه قد صارت بحجم فرخ طائر وليد. وهكذا تشفَّى اليهود - ولو بقصة مختلقة - في الرجل الذي قتل مئات الآلاف منهم وأسر عددا مماثلا وخرب هيكلهم وسرق كنوزهم.

عقبت «فريدة»:

-حسنا، وماذا أيضا يا «علاء» من حكايات عن شؤم المائدة؟

-«آلريك»، ملك «القوط»، الذي نهب روما عام ٤١٠، كما أسلفنا، قضى نحبه في العام نفسه الذي حاز فيه المائدة، ناهيك عن أحداث «غرفة المزاليج» وضياع دولة «القوط»؛ لذا لم يكن مستغربا أن يقرر الوليد التخلص منها. ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أنه حين حاز المسلمون المائدة، سُمع يومئذ منادٍ ينادي لا يرون شخصه: «أيها الناس، إنه قد فُتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذركم». أيضا قرأت أن عقدة سليمان التي كان هناك ست منها على المائدة أو بالأحرى ثلاث كانت تُستخدم لاصطياد الجن.

-ماذا؟

-نعم يا «فريدة»، هذا ما حدث. نجا الوليد من لعنة المائدة، لكنها أصابت

موسى بن نصير.

-ربما لأنه لم يكن صادقا.

-ولم يكن كاذبا أيضا يا «غادة»؛ ففتح «طليطلة» تم تحت رعايته.

-ماذا حدث له يا «علاء»؟

-حسنا يا «مدحت». قبل أن أقول لك ماذا حدث له دعني أوضح أن بعض المؤرخين أوردوا قصصا كثيرة كان طرفاها النبي سليمان وموسى بن نصير.

-غير ما ورد في ألف ليلة وليلة عن مدينة النحاس والقماقم السليمانية المختومة بالرصاص؟

-أجل. خذ مثلا هذه القصة التي أورها الذهبي في «سير أعلام النبلاء». يقول: إن موسى ظفر بستة عشر قمقما عليها ختم سليمان، ففتح أربعة ونقب منها واحدا، فإذا شيطان يقول: يا نبي الله، لا أعود أفسد في الأرض. ثم نظر فقال: والله ما أرى سليمان ولا ملكه، وذهب، فطمرت البواقي».

-حسنا، لنعد إلى الوليد إذًا.

-نعم يا «مدحت».. سرعان ما توفي الوليد وخلفه سليمان بن عبد الملك فعزل «موسى»، وكان وراء قتل ابنه عبد العزيز الذي تزوج «إيجلون»(

)، أرملة «لذريق»، بعد أن أُشيع أنها نجحت في تنصيره وأنها جعلت من يدخلون عليه يسجدون له.

-لماذا؟

-لماذا ماذا؟

-لماذا نشأ هذا الخلاف بين سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير؟

-يُقال - والله أعلم يا «غادة» - إن سليمان أرسل إلى موسى ألا يتعجل في مسيره.

-لِمَ؟

-إذا قضى «الوليد» نال «سليمان» الغنائم. لقد كان «سليمان» أيضا نهوما ومحبا للمال والنساء. وعلى أي حال، هذا ما أشار به عليه بضعة نفر ممن زينوا الأمور له.

-المنافقون موجودون في العصور كلها.

-فعلا يا زوجتي الجميلة، لقد ذهب الشطط بأحدهم إلى أن ربط بين اسم النبي سليمان وولي العهد سليمان، وأنه ما كُشف النقاب عن مائدة الأول إلا ليحوزها الأخير لأن لكل من اسمه نصيبا!

-عجيب. وماذا فعل موسى ابن نصير؟

-لم يعره اهتماما يا «مدحت».

-ودفع الثمن؟

-أجل. قضى «موسى» نحبه بعد عزله بسنة كمدا ووجعا. لو استقل بالأندلس وأعلن نفسه ملكا عليها ما استطاع أحد من بني أمية منازعته.

قاطعت «فريدة» سائلة:

-و«طارق»؟

-أما «طارق» يا «فريدة» فلا تخبرنا صفحات التاريخ بالكثير عنه بعد زيارته لدمشق، والراجح أنه قد هُمِّش.

-إذًا فالرجلان قد نالا لعنة المائدة.

-أجل يا «مدحت». ربما يكون هذا الكلام صحيحا.

-والمائدة؟

-المائدة، يا زوجتي العزيزة، أمر «الوليد» فنُزعت عنها أطواقها الثلاثة من اللؤلؤ والياقوت والزمرد، ثم هُشمت إلى أجزاء صغيرة.

-حتى ترحل عنها اللعنة؟

-لا أدري يا «مدحت». ربما، لكنه اتخذ قرارا جريئا.

-ما هو يا «علاء»؟

-حسنا يا «فريدة». كان الوليد قد عَمَّر مسجد دمشق بخمسة ملايين درهم. أثار هذا استياء الناس؛ فالمسجد الأموي ليس من المساجد الثلاثة التي يُشد إليها الرحال. كان قد ضرب نقودا أيضا من ذهب قبة الصخرة، ولم يرتَح الناس لهذه الفعلة؛ لذا قرر «الوليد» أن يتم صهر الذهب فتصنع منه ميازيب الكعبة ومقابضها وأن تُعلق جواهر المائدة وأحجارها الكريمة على أستارها؛ لذا يقول العمري، صاحب «مسالك الأبصار في الممالك والأمصار»: إن الوليد بن عبد الملك هو أول من ذَهّب الكعبة في الإسلام، وإن البغل الذي حمل الذهب والجوهر تفسخ نتيجة ثقل الحمولة( ).

قاطع «مدحت»:

-وهذا يفسر الخط رقم «٤» – «٥». مكة هنا هي المدينة المقصودة في منطقة الحجاز.

-بالضبط يا «مدحت».

-آسف للمقاطعة. أكمل يا «علاء».

-رأى «الوليد» أن الكعبة هي المكان الوحيد الذي يستحق أن ينال هذه

النفائس التي تنتمي لنبي من أنبياء الله. وتعليق كل ما هو نفيس أو مهم أمر مستقر في العقل الجمعي الحجازي.

-لكن يا زوجي.. سمعت عن المعلقات السبع وصحيفة الحصار التي أكلتها الأرضة... إلى آخره، لم أسمع عن نفائس تُعلَّق على ستائرها.

-يؤكد ذلك، يا زوجتي، ما أورده «الفاكهي» من أن شيبة بن عثمان كان يُقسم ما يسقط من كسوة الكعبة على المساكين. ثم لا تنسوا أن «الوليد» كان على أعتاب الموت، وربما أراد أن يتقرَّب لله بهذه الفعلة. ربما أراد أيضا أن يتقرب لأهل مكة؛ فأحداث فض فتنة عبد الله بن الزبير ظلت تغيم على أجواء المدينة المقدسة.

-وبذلك وصلت مائدة سليمان إلى مكة.

-نعم يا «غادة»، لكنها لم تعد مائدة.

-أصبحت كنزا.

-فعلا يا «فريدة».

علق «مدحت»:

-أتدرون يا جماعة؟ كم أتمنى أن أحوز آلة زمن فأذهب إلى هذه العصور

وأشهد تلك الوقائع.

-السؤال هنا يا أصدقائي..

-ما هو يا بنت الخالة؟

-هل هذا هو كنز الكعبة الذي سمعنا عنه؟

علق «علاء»:

-حديث كنز الكعبة يا «فريدة» صحيح( )، لكنه يتحدث عن علامات آخر الزمان.

قاطعت «غادة»:

-لا أعلم شيئا عن هذا يا «فريدة».

أضاف «مدحت»:

-ولا أنا. لم أسمع سوى عن الغزالتين اللتين وجدهما عبد المطلب بن هاشم وهو يعيد حفر بئر زمزم، وأظن أنه أودعهما الكعبة ثم اختفتا.

عقَّبت «فريدة»:

-هناك من يقول بأن عبد المطلب سيّل الغزالتين وزين بهما الكعبة، أما الكنز محل الحديث فمدفون تحتها، ويقال إن الذي سيستخرجه الأحباش بعد أن

يخربوا البيت الحرام ويمزقوا كسوته.

-الأحباش؟!

هكذا صاح «علاء» متعجبا. ردت «فريدة»:

-نعم يا «علاء» الأحباش. لِمَ الدهشة؟

ردت «غادة» عنه:

-انظري إلى الخريطة وأنت تعرفين.

تمتمت «فريدة»:

-تقصدين الخط رقم «٥» – «٦»؟

-أجل. مكة – الحبشة.

-هذا ليس له علاقة بكنز الكعبة؛ لأنه لو خرج الكنز لما كنا موجودين هنا.

علقت «غادة»:

-إذًا علينا أن نجد سببا آخر لانتقال الكنز من مكة إلى إثيوبيا.

أقر الجميع:

-نعم.

أردفت «غادة»:

-لم أنم أمس بشكل جيد. لنقف هنا ونواصل غدا.

(١٣)

تأخر «علاء» قليلًا في شاليه «مدحت» ليجمع حاجياته، بينما انطلقت «فريدة» و«غـادة». شكر «علاء» «مدحت» على فتح الشاليه وتسخير الإمكانات لهم. رد «مدحت» بأنه ممتن له ولغادة ولـ«فريدة» لأنهم ضخوا دماء الحياة في عروقه. أبلغه «علاء» أنه يتمنى أن تدوم صداقتهما وأن تتوثق عرى العلاقة بينهما، ملمحا إلى «فريدة» وكيف يمكن أن تكون الجسر الذي يربطه بهذه العائلة.

في الطريق، شكرت «غادة» بنت خالتها على هذه المغامرة المثيرة التي كان لها أبلغ الأثر في إطلاق «الأدرينالين» من جديد في حياتها العاطفية، بل وإنقاذ زواجها دون مبالغة بعد أن تحولت هي و«علاء» إلى ترسين في ماكينة ضخمة. أثنت «غادة» على «مدحت» مصرحة برغبتها في أن تتطور علاقة «فريدة» به.

كانت مدام «بثينة» تجلس في شرفة الشاليه منهمكة في الحديث عبر الهاتف مع صديقة عمرها «إنجيلا». أبلغت «فريدة» أن مدام «إنجيلا» تسلم عليها وتتمنى أن تراها في الإسكندرية في شم النسيم. سألت «فريدة»:

-ومتى شم النسيم يا أمي؟

-السادس من مايو.

-متأخر قليلا، أليس كذلك؟

-لا أدري يا بنيتي. ما أخبار كنزكم؟ هل قاربتم على الوصول إليه؟

-قطعنا شوطا كبيرا يا خالتي، لكني أعتقد أن المرحلة المقبلة أصعب بكثير.

-أين توقفتم؟

-مكة يا أمي. الكنز الآن معلق على أستار الكعبة.

-أي سنة يا «غادة»؟

-٧١٥ ميلادية، وهي السنة التي توفي فيها الوليد بن عبد الملك.

-وأي عام كان فتح الأندلس؟

-سقوط «طليطلة» كان عام ٧١١ ميلادية.

-والخط المقبل هو؟

-مكة - الحبشة يا أمي.

-الحبشة. الحبشة.. يعني لقمان الحكيم، أبرهة الأشرم، بلال بن رباح، بركة الحبشية حاضنة النبي، النجاشي أصمحة، الأنبا تكلا هيمانوت، سيدي ياقوت العرش، الحبشي..

-تقصدين «وحشي» قاتل «حمزة»؟

-لا، الحبشي أمير جماعة دينية إسلامية تُعرف بالأحباش، خرج من مدينة «هرر» الإثيوبية وادعى أن أصله قرشي يعود لبني شيبة( ).

-بنو شيبة الذين يحوزون مفاتيح الكعبة؟!

-نعم.

-غريب! هل يعني ذلك...

-توقفي. لا تتركي لعقلك العنان. بنو شيبة سدنة الكعبة، وآل جودة ونسيبة حاملو مفاتيح كنيسة القيامة، من أطهر من مشى على الأديم. تحتاجون لقراءة المزيد عن الحبشة. هل تعلمون أن كلمة «الحبشة» أصلها «حبشت»، وهو اسم قبيلة سبئية؟

-فعلا يا خالتي، ينبغي علينا أن نقرأ قليلا عنها.

-اسمعي يا «فريدة»، أتذكر أن مدام «إنجيلا» قالت لي يوما إن الكنيسة القبطية والكنيسة الإثيوبية شيء واحد أو كانتا شيئا واحـدا، لا أدري. العلاقة بين مصر والقرن الأفريقي ثابتة لا تحتاج إلى دليل. ورد أن الملكة «حتشبسوت» أرسلت سفنها لبلاد «بونت». حتى الدكتور صامويل جونسون وضع روايته الفلسفية «راسيلاس» بين الحبشة ومصر( )، ربما كان من المفيد أن تفهموا هذه العلاقة، لا سيما أن الخط التالي إذا أسعفتني الذاكرة هو الحبشة - الإسكندرية.

-أجل يا أمي. فكرة صائبة.

-أظنكم فعلتم ذلك من قبلُ؟

-نعم يا خالتي. تقصدين علاقة الدائرة الرقمية أو المدينة بما قبلها وما بعدها؟

-بالضبط.

-الحقيقة يا أمي أن ما نحتاجه هو مسحة من التخيل.

-يستطيع «علاء» أن يساعدكم كثيرا في هذا الشأن. أين هو بالمناسبة؟

-في الطريق يا خالتي.

-«علاء» يا أمي بذل مجهودا جبارا في حل شفرة الرموز حتى الآن. لديه هدف ربما أقوى من الكنز.

-الرواية؟

-نعم يا خالتي. يريد أن يتقدم بها لجائزة كبرى. وعدني إن فاز بها سيبتاع «شاليه» هنا حتى نصير جيرانا ونتذكر هذه الأيام الممتعة.

-فكرة رائعة. وفقكم الله.

انكب الباحثون الأربعة على القراءة في الكتب الورقية أو «الإلكترونية»، خلال شق طويل من الليل وأغلب ساعات النهار. أبحر كل منهم إلى عالم خاص شكَّل فيه تصوراته وقناعاته الخاصة حتى حل موعد اللقاء اليومي. بدأ «علاء» قائلا:

-ما نبحث عنه يا شباب هو علاقة بين مكة و«أكسيوم» بعد عام ٧١٥ ميلادية.

-«أكسيوم»؟

-نعم يا «غادة». الاسم القديم للحبشة.

-اسمعوا يا جماعة. اقترحت أمي أمس أن نسبر غور العلاقة بين الحبشة

ومصر. تفسير الخط اللاحق قد يساعدنا في تفسير الخط السابق.

-بمعنى؟

-بمعنى يا «مدحت» أننا إذا فهمنا العلاقة بين «أكسيوم» و«الإسكندرية» فقد نستطيع حل لغز انتقال الكنز من مكة إلى «أكسيوم»، الذي لا أجد له تفسيرا منطقيا ولا واقعة تاريخية تؤيده.

-فعلا.

تدخلت «غادة» قائلة:

-يجب يا جماعة ألا نُغفل نهر النيل الذي ينبع من هضبة الحبشة. أحسب أنكم سمعتم عن سد النهضة أو الألفية الذي شرعت إثيوبيا في تشييده، والمشكلة التي تسبب فيها هذا السد بين مصر والحبشة.

-أجل يا زوجتي العزيزة. لدينا رابط النيل والكرازة، ولو أن الكنيسة الإثيوبية انفصلت عن القبطية عام ١٩٥٩ ميلادية.

علق «مدحت»:

-أرى أن نركز على الكرازة لا النهر؛ لأن الكرازة المرقصية تقع في الإسكندرية، والبابا اسمه بابا الإسكندرية، والرقعة الجلدية تشير إلى الإسكندرية.

عقبت «فريدة»:

-استمعوا إليَّ.. أرى أن نقصد الإسكندرية غدا ونتوجه إلى الكرازة. يمكننا طلب مساعدة السيدة «إنجيلا» في تنظيم هذه الزيارة؛ لأنها عملت هناك لفترة طويلة. نتحدث مع القساوسة هناك ونحاول أن نفهم طبيعة العلاقة.

علق «مدحت»:

-فكرة صائبة، لكن ماذا سنقول لهم يا «فريدة»؟

-نقول إننا نجري بحثا عن العلاقات المصرية - الإثيوبية، أو إن «علاء» يعد عملا روائيا عن العلاقة بين البلدين.

-وماذا نفعل اليوم؟

ردت «غادة»:

-راحة.

عقَّب «علاء»:

-بالفعل أحتاج إلى بعض الوقت لأراجع الرواية، وربما نشدت مساعدتكم.

-ألم نفعل ذلك من قبل؟

-بلى يا «فريدة»، لكننا تقدمنا أشواطا كبيرة. أعتبر نفسي المسئول عن المضبطة. أقوم بتسجيل كل شيء. ربما ما أحتاجه هو بعض الأرشفة والتصنيف الجيد للمعلومة، وفوق هذا وذاك أريد رأيكم.

بالفعل، أمضى الأربعة الأمسية في مراجعة ما كتبه «علاء» من أحداث شكَّلت الهيكل الأساسي للرواية قبل تطعيمها ببعض التشويق والإطناب والوصف وبعد الحذف منها والإضافة عليها. راق لهم أيضا استخدامه لتقنية «الفلاش باك» للمشاهد السينمائية في القفز بين أزمنة التاريخ واستحضار الشخصيات في سعيها نحو الكنز. ضحكوا حين تذكروا بعض الوقائع وشردوا حين قرأ عليهم «علاء» أحداثا أخرى.

عبروا عن إعجابهم بمدخل الرواية التي تحدث فيها «علاء» عن أهمية اللغز في حياتنا. كتب يقول: «الحياة لغز والموت لغز. الروح لغز والإنسان لغز والمرأة لغز. كم من الألغاز عجز العلم عن الإجابة عليها! كم من الألغاز لم يفلح التاريخ في حلها: مثلث برمودة ولغة قرص فايستوس( ) الذي عُثر عليه في كريت، زرقاء اليمامة وكفن تورين( ) الذي نُسب للسيد المسيح، خطوط نازكا( ) وجماجم كنيسة سيدليك( )، الهرم الأكبر ومكان يأجوج ومأجوج، الأطباق الطائرة والرؤوس الحجرية بجزيرة الفصح في شيلي، دوائر المحاصيل( ) وستونهنج( ) في بريطانيا، قارة أتلانتيس وسر اندثار كوكب

بلوتو، جيش قمبيز واختفاء الحاكم بأمر الله... إلخ.

هل سألت نفسك عن إحساس هؤلاء الذين أوقفوا حياتهم على البحث فسهروا وتعبوا ودققوا وحاولوا وأخفقوا وتابعوا ثم وصلوا؟ يا تُرى، ما شعور هؤلاء الذين ارتادوا واكتشفوا واستنبطوا وطوروا أو حتى تحدثوا عن أشياء لفها العدم أو الغموض قبل أن تنجلي أسرارها: الثقب الأسود والانفجار الكبير والجزيئات والنظائر المشعة والضغط الجوي والكهرومغناطيسية والأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية والنسبية وسرعة الضوء والترانزستور والبكتيريا وانقسام الخلية وأنواع الدم والإنسولين والليزر والكورتيزون والحامض النووي... إلخ؟

كم من السنين أمضاها (برزويه) في الهند متسللا كل يوم لمكتبة الملك ليترجم كتاب (كليلة ودمنة) للفارسية؟! كم من السنين أمضاها (شامبليون) وهو يحاول فك طلاسم حجر رشيد؟! كم من السنين أمضاها (ماجلان) وفاسكو دا جاما في المحيطات والبحار؟! كم من الوقت والجهد استُنفدا لاكتشاف البنسلين والبنج وعلاج الكوليرا والبلهارسيا؟!

أي سر أنت؟ وأي سر عذَّبك ودوَّخك وشتتك؟ أي لغز أنت؟ وما اللغز الذي حيَّرك؟ وما السؤال الذي أرَّقك وقض مضجعك وطيَّر النوم من عينيك؟».

الشاهد من هذا كله أن لكل إنسان رواية يكتب فصولها بنفسه أو يكتبها آخرون عنه أو يخط سطورها القدر. الثابت أن كلا منا يحتاج في فترة ما من حياته إلى لغز يغيِّر الإيقاع «الميكانيكي» الرتيب لحياته وينفض عنها تراب السنين. لغزك يناديك فانطلق ولا تحرم نفسك من متعة البحث والتنقيب ولذة المعرفة ودهشة الاكتشاف.

(١٤)

بالفعل قامت «فريدة» بالتنسيق مع السيدة «إنجيلا». انطلق الحالمون الأربعة في الصباح بسيارة «مدحت» إلى الكرازة المرقصية. تقابلوا مع السيدة «إنجيلا» التي عرفتهم بدورها على أحد القساوسة المتخصصين في تاريخ الكنيسة القبطية والكنيسة الإثيوبية.

كان القس «سمعان» الرجل المطلوب فعلا؛ حيث شرح لهم أبعاد العلاقة وكيف بدأت ولماذا تعثرت.. تطرق إلى النيل وقضية المياه. قال: إن الكنيسة القبطية اضطلعت بدور سياسي كلما توترت العلاقة بين البلدين. سرد ما قام به البابا ميخائيل الثاني (١٠٩٢ – ١١٠٢) من خدمة جليلة لمصر خلال الشدة المستنصرية؛ إذ حدث أن النيل أخذ في الانخفاض عاما بعد عام نتيجة إنشاء ملك الحبشة سدا في بلاده يمنع المياه الوفيرة عن الوصول إلى مصر، فطلب الخليفة المستنصر منه أن يذهب إلى ملك الحبشة، وبما له من مكانه

روحية لديه يستطيع أن يجد حلا، وفعلا سافر البابا ميخائيل إلى الحبشة وقابله ملكها بالترحاب، فعرض عليه المشكلة، فأمر الملك - بعد أن أخذ هدية كان قد أرسلها معه المستنصر - بفتح السد فوصلت المياه إلى مصر وعادت الحياة إلى الزرع والضرع وهبط الغلاء، وعمَّ السرور. وكانت هذه أول زيارة لبطريرك مصر للحبشة منذ خضوعها دينيا لكنيسة الإسكندرية. عرج القس سمعان إلى الحديث عن «دير السلطان» في «أورشليم» بالقرب من كنيسة «القيامة»، الذي تتنازع ملكيته الكنيستان. تحدث عن الصراع في القرن الأفريقي وتأثيره على علاقة الدولتين. قال إنه على الرغم من توتر العلاقات في فترات تاريخية كثيرة فإن كل طرف كان لديه خط لا يتعداه، فحين اقترح أحد الداعين للحملات الصليبية، فيليب ميزييه( )، تحويل مجرى نهر النيل للضغط على مصر وتجويع أهلها، رفض الأحباش.

قرأ القس لهم فقرة من العهد القديم تقول: «يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش المرسلة رسلا من البحر وفي قوارب البردي على وجه المياه»، ليدلل لهم على عمق وقدم العلاقة بين الأمتين. و«كوش»، لمن لا يعلم، هي أرض الحبشة، نسبة إلى كوش بن حام بن نوح. أرجع هذه العلاقات إلى العصر الفرعوني، مدللا على ذلك بقوارب البردي المذكورة في سفر أشعيا ١٨:١، كما سبق.

عرج القس «سمعان» على تابوت العهد الذي كان يحوي الألواح التي حطمها «موسى» وبقايا بني إسرائيل مثل وعاء المن وغيره. قال إنه حُمل من مصر إلى التيه ثم أرض «كنعان» قبل أن يستقر في الهيكل ويختفي بعد ذلك. أضاف أن الكنيسة الإثيوبية تزعم أن تابوت العهد موجود الآن في حوزتها في مخبأ أو سرداب سري بكنيسة «مريم العذراء، سيدة صهيون» في أديس أبابا.

أضاف أن يهود الحبشة يعتقدون أن أول إمبراطور لهم (منليك الأول) هو ابن النبي سليمان من بلقيس، ملكة سبأ. يعتقد الأحباش أن «منليك» هو مؤسس السلالة السليمانية التي حكمت الحبشة من ٨٥٠ قبل الميلاد إلى ١٩٧٤ مع سقوط «هيلا سيلاس». يعتقدون أيضا أن «منليك» هذا هو من أشرف على إحضار تابوت العهد إلى «أكسيوم».

أعرب القس «سمعان» عن استعداده لتلقي أي أسئلة. وجهت له «فريدة» سؤالا عن دخول المسيحية إثيوبيا. أجاب أن أجزاء كبيرة من الحبشة ظلت يهودية من ٩٥٠ قبل الميلاد حتى ٤٠٠ بعد الميلاد، أي حوالي ١٣٥٠ سنة حين تحوَّل شق بسيط من اليهود وكثير من الوثنيين إلى المسيحية. أضاف أن اليهود الذين رفضوا المسيحية يسمون الآن يهود «الفلاشا». قاطعه «مدحت» سائلا:

-هؤلاء الذين يهاجرون إلى إسرائيل بطرق شرعية عبر جنوب السودان وطرق غير شرعية عبر سيناء؟

-أجل. يسكنون حول بحيرة «تانا»، شمال غربي الحبشة. يعيشون فيما يُسمى «طوقول»، عبارة عن بيوت مصنوعة من فروع الأشجار المتراصة والمتلاصقة بالطين. يمارسون الرعي بشكل رئيسي. يستخدمون السحر والتمائم في علاج المرضى وحل المعضلات والتنبؤ بالمستقبل. يخلطون يهوديتهم بكثير من الأمور الوثنية.

قاطع «علاء»:

-سمعت أنهم تُساء معاملتهم في إسرائيل، فكيف ذلك وهم يزعمون أنهم أبناء النبي سليمان؟!

-هذا اعتقادهم هم. يرى آخرون أنهم ينتمون لإحدى القبائل اليهودية العشر الضائعة أو المفقودة بعد الغزو الآشوري عام ٧٢٦ قبل الميلاد. هناك من يقول إنهم من سبط «دان»، الذين رفضوا تحول اليهود عن العبادة السليمة فرحلوا إلى مملكة «أكسوميت»، أي: الحبشة. يؤكد ذلك أن كلمة «فلاشا» تعني «الغرباء» أو «المهاجرون». هناك أيضا من يرى أنهم من يهودي مصر أو اليمن الذين اختلطوا بالسكان المحليين بعد تهويدهم.

-لكن هذا أيها القس المبجل لا يُجيب عن سؤال: لماذا يعاملهم الإسرائيليون باحتقار؟

-يعتقد الإسرائيليون أن يعقوب تزوج من «ليا» وأختها «راحيل» ومن جاريتهما «زلفة» و«بلهة»، وأن سبط دان هم أبناء الجارية «بلهة»، يعني: خدام لبني إسرائيل.

شكر الأصدقاء الأربعة القس «سمعان» على هذه المعلومات الوفيرة. اصطحبهم الأخير في جولة سريعة بالكرازة. مروا سريعًا على قائمة بباباوات الإسكندرية وبعض صورهم. أشار القس إلى إحدى الصور قائلا:

-هذا هو البابا «يؤانس السادس». حدث في عصره بعض الأمور الخاصة بالكنيسة الإثيوبية.

سارعت «غادة» بالسؤال:

-ما هي؟

-أعفيني من ذكرها، لكنكم ستجدونها في هذا الكتاب الذي أهديكم نسخة منه؟

-أي كتاب؟ «تاريخ البطاركة» لساويرس بن المقفع؟

-لا، كتاب «سير وقصص الشهداء والقديسين» للقمص تادرس يعقوب ملطي.

شكر الزائرون القس «سمعان» ومدام «إنجيلا» على حسن الضيافة والجولة الشائقة في الكرازة. اتصلت «فريدة» بأمها لتخبرها أنهم قرروا تناول طعام الغداء في الإسكندرية. توجهوا بعد ذلك لاحتساء الشاي في لوبي فندق «وندسور». بدأ «مدحت» قائلا:

-«الفلاشا» يعتبرون أنفسهم ورثة النبي سليمان، ما يعني...

أكملت «فريدة»:

-أن الجواهر التي زينت أستار الكعبة هي ملك لهم.

علق «علاء»:

-يمكننا أن نتخيل أن أحد أحباش «الفلاشا» دخل مكة متخفيا أو متظاهرا بأنه مسلم، وفي يوم سيئ الطقس شديد البرودة امتلأ فيه صحن الكعبة بمياه الأمطار...

قاطعت «غادة»:

-على فكرة، رأيت صورة قديمة للكعبة على هذه الهيئة.

أكمل «علاء»:

-أجل.. المهم، في خضم هذه الأنواء والأجواء تسلل الرجل إلى الكعبة ونزع عنها الجواهر. ربما أيضا تواطأ مع أحد المطوفين نظير مبلغ من المال.

علقت «فريدة»:

-لكن هل من السهل انتزاع شيء من أستار الكعبة يا «علاء»؟!

-هناك ما يؤكد حدوث ذلك في أزمان مختلفة. قيل إن الصنم «هُبل» كان له ذراع من ذهب تمت سرقتها، ثم هل تذكرين الحديث عن غزالتي الكعبة؟

-نعم.

-قيل إن ثلة من شباب قريش ممن يشربون الخمر سرقوهما أو سرقوا إحداهما، وإنه كان معهم أبو لهب، الذي ساعد المعتدي على التسلق، مستفيدا من عظم حجمه، ثم قسم الغزالة وباعها لقافلة شامية. وإذا كان القرامطة قد سرقوا الحجر الأسود فليس بمستغرب أن يحدث هذا.

-كيف حدث هذا؟!

-دخلوا الحرم وقتلوا الحجيج وألقوهم في بئر زمزم، ومن التجأ إلى الكعبة ودخل في أستارها وغير ذلك قتلوه، واقتلعوا أستار الكعبة وقطعوها وأخذوها لهم، وقلعوا الباب وحاولوا قلع الميزاب فما استطاعوا، وضرب أحدهم الحجر

الأسود بسيفه فكسره، ثم اقتلعوه وأخذوه معهم. حدث هذا عام... أظن ٣١٧ هجرية.

-حسنا، وبعدُ؟ أقصد في قصتنا.

أخذ «مدحت» بطرف الحديث عوضا عن «علاء» قائلا:

-ثم لاذ بالهرب من مكة عبر البحر الأحمر إلى «عيذاب» ثم برا جنوبا إلى «أكسيوم».

عاد «علاء» فقبض على خيط الحكاية قائلا:

-«عيذاب»! أتعرفون أن ابن جبير، الذي توفي في الإسكندرية عام ١٢١٧ ميلادية، قال عن «عيذاب» إن نبي الله سليمان اتخذها سجنا للعفاريت؟!

-إنها على طريق الحج القديم.

-نعم يا قبطان، لكن لا أعتقد أن سارق الكنز سلكها، والأرجح أنه هرب من باب «أم هانئ» بمكة إلى الطائف ثم «مخا» في اليمن ثم البحر الأحمر عبر أرخبيل «دهلك» إلى «أكسيوم».

عقب «مدحت»:

-فعلا. إن عرض البحر يضيق عند هذه النقطة لدرجة يسهل معها لمن يقف

على أحد الشاطئين رؤية مرتفعات الجانب الآخر في الأوقات التي يكون فيها الجو صحوا.

-أول مرة أسمع عن أرخبيل «دهلك»! أين تقع هذه الجزر يا «مدحت»؟

-مجموعة جزر «دهلك» يا «فريدة» تقع أمام سواحل «إريتريا» حاليا. لجأ إليها بعض أنصار الحسين بعد نكبة كربلاء. قاموا بغارات ضد «جدة» نكاية في الأمويين، حتى إنهم خططوا عام ٧٠٢ ميلادية لتدمير مكة والاستيلاء على الكعبة التي وُلد فيها الإمام علي بن أبي طالب. كانوا حاقدين بشكل خاص على الوليد بن عبد الملك لظنهم أنه أمر عامله على المدينة بدسِّ السم للإمام علي زين العابدين بن الحسين، أو علي السجاد، الإمام الرابع عن الشيعة.

عقب «علاء»:

-وأنا بدوري، أعتقد أن من سهَّل مهمة الهرب لسارق الكنز في اتجاه الحبشة شخص يمني. هل توافقينني الرأي يا «فريدة»؟

-لا أدري يا «علاء». العلاقة بين اليمن والحبشة لم تكن دوما جيدة. اليمنيون كانوا يخطفون الأحباش ويبيعونهم في سوق الرقيق، والأحباش غزوا اليمن عام ٥٢٢ ميلادية وساموهم العذاب، تلك القصة المشهورة.

-أصحاب الأخدود؟

-أجل.

-لكن يجب ألا ننسى يا «فريدة» أن شبح الصراع بين «اليمنية» و«القيسية» أو عرب الجنوب وعرب الشمال كان ما زال في الأفق. ناصر أهل اليمن عليًّا - رضي الله عنه - ضد معاوية الذي أرسل لهم، حين أصبح الخليفة، بسر بن أرطأة، فقتل منهم ثلاثين ألفا. عاد اليمنيون وناصروا العائذ بالكعبة، عبد الله بن الزبير، ضد الأمويين وكرهوا خالد بن عبد الله القسري وأيوب بن يحيى الثقفي، واليَي الوليد بن عبد الملك على مكة واليمن.

سألت «غادة»:

-لكن أين ذهبت الجواهر؟

أجاب «مدحت»:

-قال القس «سمعان» إن الإثيوبيين يعتقدون أن تابوت العهد موجود في كنيسة العذراء بأديس أبابا. أليس كذلك؟

أجاب الجميع في صوت واحد:

-بلى.

-حسنا. كيف ترك يهود «الفلاشا»، ورثة سليمان، تابوت العهد إلى من تنصر منهم حتى انتهى به المطاف في كنيسة العذراء مريم في «أديس أبابا»؟

أجاب «علاء»:

-في عام ١٩٩٢، صرح كاتب بريطاني اسمه جريم هانكوك( ) بأن التابوت ظل لفترة في منطقة بحيرة «تانا» قبل أن يتم نقله إلى «أكسيوم». هذا يثبت أن الذي سرق الجواهر هم من يهود «الفلاشا» فعلا.

سألت «فريدة»:

-إذًا لماذا تخلوا عنه؟!

-قالوا يا «فريدة»: إن «الفلاشا» يحيون حياة بدائية. ربما لم يجدوا مكانا مناسبا ومؤمنا للتابوت والجوهر.

-هذا ليس مقنعا يا «غادة». أجبني أنت يا «علاء».

-هناك أخبار تقول إن امرأة منهم...

-من يهود الفلاشا؟

-امممم.

-هذه المرأة يُقال لها «جوديت»( )، ملكت الحبشة وخربت كل كنائسها عام

٩٦٠ ميلادية تقريبا، بما فيها كنيسة مريم العذراء أو مريم صهيون.

-ربما كانت تبحث عن التابوت والكنز بعد أن سُلبا منهم.

-ربما. حكمت هذه المرأة لمدة أربعين عاما ثم تنصر خلفاؤها على العرش.

-ماذا تقول؟! تنصروا؟!

-أجل يا «مدحت». ليس هذا فقط، بل رحبوا بالأقباط الفارين من مصر للحبشة بسبب اضطهاد الحاكم بأمر الله لهم. ومن ثم أميل إلى الاعتقاد عكس ما هو شائع بأن تابوت العهد وكنز جواهر مائدة سليمان لم ينتقلا إلى كنيسة العذراء إلا بعد بداية الألفية الثانية، عام ١٠٠٠ ميلادية، أي: بعد وفاة «جوديت» وتنصر من تولى بعدها.

عقب «مدحت»:

-وهل يعني ذلك أن الجواهر وضعت داخل التابوت في كنيسة العذراء؟

ردت «فريدة»:

-لا أتوقع أن الجواهر وُضعت داخل التابوت؛ لأنه في مكان سري ولا يتم فتحه مطلقا. رجل دين واحد فقط منوط به خدمة التابوت، والصندوق لا يظهر للعيان مطلقا. ألم تستمعوا إلى القس «سمعان» وهو يقول إن بعض

من أوكل إليهم خدمة التابوت زعموا أنهم فقدوا بصرهم بسبب النور الشديد الذي يخرج منه؟

-فعلا يا بنت الخالة، لكن هذه روايات الأحباش والعهدة عليهم.

-لذلك أنا أرجح أن الكنز ظل في مكان ما في الكنيسة عوضا عن السرداب.

أمسك «علاء» بزمام الحديث قائلا:

-لا أستطيع أن أتمالك نفسي من الإثـارة، لكن كيف وصل الكنز إلى الإسكندرية؟

ردت «فريدة»:

-اطلب لنا «كابتشينو» وسأقول لك.

(١٥)

انكب الأصدقاء الأربعة على احتساء «الكابتشينو» في صمت التفكير. هل يمكن أن يؤرق لغزٌ حياةَ البعض إلى هذا الحد؟ لو أن هناك آلة تصور عقول أصدقائنا في ذاك الوقت لبدت أشبه بماكينة درس القمح. قطع «علاء» الصمت قائلا:

-حسنا يا «فريدة»، هيا بالله عليك.

-الإجابة عن هذا السؤال هنا، في هذا الكتاب.

-«سير القديسين»؟

-نعم.

-ما الذي يجعلك متأكدة؟

-تصفحته أثناء الغداء. ذهبت مباشرة إلى ترجمة الأنبا «يؤانس السادس».

شعرت أن هناك شيئا لم يُرِد القس «سمعان» أن يتحدث عنه.

تدخل «مدحت» قائلا:

-وماذا وجدت؟

-حسنا، سأقرأ لكم نص ما كتبه تادرس ملطي في «سير القديسين»: «وبعد ولايته (يؤانس السادس) وصله خبر وفاة مطران الحبشة فعين بدله كيلوس...».

-«كيلوس»!

-نعم يا «مدحت». أسقف «فوة». في الغالب «كيلوس» هنا اختصار «مكاريوس». توجه للحبشة عام ١٢٠٦ ميلادية على الأرجح.

-حسنا، آسف للمقاطعة. أكملي.

-«.. ورقَّاه إلى درجة المطرانية، وسافر إلى الحبشة حيث قوبل بفرح عظيم ترأسه الإمبراطور نفسه، ولكنه عاش في بلاد الحبشة عيشة الترف».

عقبت «غادة»:

-جميل حتى الآن، وبعد؟

-«.. وحدث مرة أنه فُقد في كنيسة أكسيوم آنية ذهبية عظيمة القيمة. حصر المطران الشبهة في أمين خزانة الكنيسة وأمر بضربه حتى مات. ثار عليه

أهله وأرادوا أن يفتكوا به، لكنه لاذ بالفرار وأتى مصر. فسأله البطريرك عن المسألة وعن سبب مجيئه، فأجابه أن أخًا للملك اغتصب الرئاسة منه لعدم موافقته له في بعض الأمور التي تختص بالدين، فلم يقبل البطريرك منه هذا السبب، وأرسل مندوبا من قبله إلى الحبشة لاستجلاء الأمر والتحقيق فيه، بينما حجز هذا الأسقف لديه، وبعد سنة عاد المندوب وعرض على البطريرك نتيجة التحقيق، وأرسل ملك الحبشة مع هذا المندوب بعض كبار المملكة ونسيبه الخاص ليشهدوا أمامه ضد المطران، كما أرسل ملك الحبشة هدية ثمينة لملك مصر، وطلب مطرانا غيره.. فجمع مجمعا كبيرا من رؤساء الكهنة وكبار الأراخنة، وأحضر المطران، وبعد تلاوة القضية في حضوره حكم عليه المجمع بتجريده من رتبته وكل درجاته الكهنوتية قبل الشروع في رسامة آخر، وقد تقاطر الناس، مسلمين وأقباطا، لمشاهدة هذا المنظر غير المسبوق. وجرد هذا المطران من ملابسه الرسمية وعاد علمانيا ممقوتا من الجميع، ورسم مكانه أحد رهبان دير الأنبا أنطونيوس». انتهى النقل. ماذا نفهم من ذلك؟

أجابت «غادة»:

-أن الجواهر كانت في آنية ذهبية داخل مخزن بالكنيسة.

عقب «علاء»:

-متى تولى البابا «يؤانس السادس» الكرازة؟

-من ١١٨٩ إلى ١٢١٦.

-ماذا قلت؟ إنه تاريخ الرقعة الجلدية. نحن في الطريق الصحيح إذًا؟

-أجل. عاصر البابا «يؤانس» صلاح الدين والعزيز والمنصور والعادل الأول. أتعلمون أن الكرسي البابوي خلا بعد وفاة «يؤانس السادس» من ١٢١٦ إلى ١٢٣٥ ميلادية؟

-نوع من الاضطهاد الديني؟

-لا يا «غادة». يقول القمص تادرس ملطي، في كتاب «سير القديسين»: إن «يؤانس» كان محبوبا من الشعب والحكام، لكن الحقيقة هي أن الأيوبيين كانوا ضد السلطة الدينية. ما إن تنيَّح البابا حتى تركوا المقعد خاليا. لقد أبطلوا أيضا، منذ توليهم، إقامة الجمعة في الأزهر بسبب التشيع الفاطمي، واستمر هذا الأمر تقريبا خلال فترة حكمهم.

ساد الصمت نحو دقيقة. أخذ «علاء» الكتاب من يد «فريدة» وراح يطالعه. فتح الكتاب من اليسار. علقت «غادة»:

-من اليمين.

-أردت أن أراجع فهرس الأعلام.

عاد الصمت من جديد، لكن هذه المرة استمر أكثر من سبع دقائق قبل أن يقطعه «علاء» بسؤال:

-لكن ما الذي جعل «يؤانس» يعزل المطران المصري «كيلوس»، العائد من الكنيسة الإثيوبية أو «يشلحه» بلغة الكنيسة؟

أجاب «مدحت»:

-لأنه كذب على البطريرك.

-صحيح، لكن...

-لكن ماذا يا زوجي العزيز؟

-دعونا نبحث عن السارق. أريد من كل منكم أن يعطيني تصوره عن السارق. «فريدة»؟

-ربما كان أحد المنتمين ليهود «الفلاشا». لديهم سبب وجيه. قلنا إنهم يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للنبي سليمان.

-لكنهم لم يهتموا باستعادة التابوت، فلماذا يسعون الآن إلى الجواهر؟ وهل

يمكن أن تُحدث الجواهر فرقا لأناس يعيشون في الأعشاش ويرعون الماشية ويرفضون أن يتبنوا مظاهر الحياة المتحضرة؟ لقد عرفنا أنهم يحترفون السحر، فلو كان لديهم الرغبة في استعادة التابوت والكنوز لاستخدموا هذا السحر في سبيل ذلك. «غادة»؟

-أرى أن السارق هو من أشار إليه كتاب تادرس ملطي: أمين المخزن.

-مدحت؟

-أرى أن نوسِّع الدائرة قليلا، وأن نفكر هنا بنظرية المؤامرة، أو نستعير الشطحات الروائية التي تفهمها جيدًا يا «علاء».

-كيف؟

-يراودني شعور أن «كيلوس» نفسه هو سارق الآنية والكنز.

صاح الجميع في نفَس واحد:

-ماذا؟!

-ليست هذه هي المرة الأولى التي تقع فيها مثل هذه الحوادث. من فهرس الأعلام بالكتاب راجعت أرقام الصفحات التي وردت فيها كلمة «الحبشة» وذهبت إليها لأتصفح ما فيها. اسمعوا وأنا أنقل لكم: في سنة ١١٠٢ توفي

مطران الحبشة فأرسل ملكُها وفدا إلى بطريرك الإسكندرية يطلب منه أن يرسِّم لهم مطرانا آخر، فرسَّم لهم الراهب «جرجس» مطرانا، وسافر إلى الحبشة مع الوفد المصاحِب له، إلا أنه كان طامعا في المال فغضب عليه الأحباش، وألزمه ملك الحبشة برد كل ما حصل عليه منهم وأعاده إلى مصر، فطرحه الوزير «الأفضل» في السجن حتى مات. قبلها، وخلال جلوس البابا «كيرلس» الثاني على كرسي الإسكندرية في الفترة من ١٠٧٨ إلى ١٠٩٢، رسَّم مطرانا على الحبشة باسم الأنبا «ساويرس»، بديلا لشخص كان يُدعى «كوريل» أو «كيريل» اغتصب الكهنوت وادعى الأسقفية في الحبشة دون رسامة، فلما وصل المطران الشرعي «ساويرس» لقي مقاومة من «كوريل» هذا، ولما فشل «كوريل»، جمع أموالا كثيرة من الأحباش وحاول الهرب بها، ولكنه قُبِضَ عليه وسيق إلى أمير الجيوش، بدر الجمالي، فحاكمه وقتله بالسيف. قبل هاتين القصتين وفي عام ٩٢٠ ميلادية، قام مطران الحبشة «مينا» بطرد خدم المطرانية ونهب ما فيها من النقود والأشياء الثمينة ونقلها إلى مصر فقتله ملك الحبشة. والآن ما رأيكم؟

-قصص دامغة يا زوجي العزيز.

-فقط تخيلوا معي ما حدث. سرق المطران القبطي الكنز من داخل الآنية. لا بد أنه كان معه نسخة من مفتاح المخزن. سارع المطران باتهام الخازن، وأمر

الحراس بتفتيش غرفته. طبعا كان قد دسَّ الآنية فارغة في حجرة الخازن آنفا. اكتشف الحراس اختفاء الكنز من داخل الآنية. في وجود بعض الشهود من رجالات الكنيسة استجوب المطران الحبشي المسكين فأنكر معرفته بذلك الأمر. أمر بضربه، بل بالغ في استعمال الشدة معه بقصد إزهاق روحه، وهو ما حدث بالفعل. ثار أهل الحبشي، لكن المطران المصري كان قد أعد الركب وانطلق به شمالا نحو مصر ومعه الكنز.

-وهل تتبعه أحد؟

-حدسي يا «فريدة» أن «كيلوس» سافر متنكرا وأنه ربما سلك طريقا آخر غير الطريق الساحلي. صحيح أن طريق النيل الأزرق محفوف بالمخاطر من وحوش وملاريا وخلافه، لكنه السبيل الوحيد المنطقي كي يبقى بعيدا عن جنود إمبراطور الحبشة وأهل القتيل الذين اقتفوا أثره من دون شك. أرجِّح أيضا أنه حين دخل مصر توقف في الإبراشيات، أو لِنَقُل الأماكن التي حطت فيها العائلة المقدسة للتزود بالمؤن، وأقصد هنا «درنكة ودير المحرق والقوصية وديروط والأشمونيين وجبل الطير والبهنسا».

-وهل اكتشف البابا «يؤانس» هذه اللعبة؟

-أظن ذلك يا «غادة». لم يكن «يؤانس» مرتاحا لحياة البذخ التي أحاط بها

المطران نفسه. أدرك «يؤانس» أنه ارتكب خطأ بتعيينه هذا المطران على رأس الكنيسة الإثيوبية.

-الحقيقة يا جماعة هناك علامات استفهام حقيقية حول تعيين «كيلوس» مطرانا للحبشة.

-كيف يا «فريدة»؟

-لقد ذكر كتاب «سير القديسين» أن اختيار الأنبا «يؤانس» لـ«كيلوس» جاء بعد هجمة سريعة للصليبيين على رشيد وتوغلهم في النيل حتى «فوة» وتخريبهم لها في عام ١٢٠٤ على أحسن تقدير. السؤال: ما البطولات التي أبداها أسقف «فوة» لتتم مكافأته بعد ترك إبراشيته بتعيينه مطرانا لكنيسة الحبشة؟

-ماذا تقصدين يا «فريدة»؟

-أقصد أن «كيلوس» كان متورطا مع الصليبيين بشكل أو بآخر، وأن «يؤانس» عرف بالأمر وأحس أن فعلة أسقف «فوة» سوف تجلب على الكنيسة القبطية بأسرها غضب الأيوبيين فسارع إلى إبعاده عن مصر قبل أن تفوح رائحته.

-وهل يعني ذلك أيضا أن «يؤانس» كان متورطا في موضوع الـ...

- الكنز؟

-نعم، خاصة أنه كان قبل رسمه تاجرا يتردد على اليمن عبر البحر الأحمر( ).

-سأرد على سؤالك.. أولا: البابا السابق «يؤانس الخامس» طلب منه الوزير «ابن السلار»، عام ١١٥٢ ميلادية، عزل بطريرك الحبشة في وقتها (ميخائيل الإطفيحي)، بناء على طلب إمبراطورها. رفض البابا، حتى إنه أُدخل السجن يومين. رد على الوزير قائلا: «يا مولاي.. ما وليته حتى اختبرته، وما ظهر لي من أمره ما يوجب عزله»( ). نستخلص من ذلك أن «يؤانس السادس» لو علم عن «كيلوس» زيغا لعزله حتى لا يكون في نظر رعيته أقل من سابقه. والظن عندي أن «كيلوس» أفلح في خداعه. الإجابة إذًا على سؤالك يا «علاء» حول تورط «يؤانس السادس» هي: «لا بالطبع»، ففضلا عن أن «يؤانس السادس» قام بتشليح «كيلوس» أمام العامة، كان الرجل أيضا موسرا قبل توليه رئاسة الكنيسة، وشهد له الجميع، المسلمون والمسيحيون، وحتى الحكام، بالاستقامة وحسن الخلق.

سألت «غادة» مغيِّرة بوصلة الحديث:

-وأين ذهب الكنز إذًا؟!

أجاب «مدحت»:

-لا بد أن المطران المصري تصرف فيه قبل الدخول على البابا الذي حبسه

عاما في الكرازة ثم عزله.

علق «علاء»:

-رائع. تحليل مذهل يا «مدحت» أنت و«فريدة».

عقبت «غادة»:

-فعلا ممتاز ومنطقي.

رد «مدحت»:

-شكرا لكم.

قال «علاء»:

-والآن دعونا نستحضر الخريطة من جديد ونتخيل ما وصلنا إليه.

علقت «فريدة»:

-لم يعد أمامنا سوى مرحلة واحدة ونصل إلى الكنز.

عقب «علاء»:

-وتنتهي الرواية.

-لا أريد لهذه القصة أن تنتهي يا «علاء».

-لا مناص من ذلك يا زوجتي العزيزة.

قال «مدحت»:

-سأحزن فعلا على فراقكم يا «علاء».

-لا عليك يا «مدحت». يمكننا أن نجد وسيلة نتواصل بها معا، ثم ما الذي يجعلكم مطمئنين إلى أننا سننتهي وشيكا؟ أنا شخصيا أعتقد أن الخط الأخير هو الأصعب وأن هذه المرحلة قد تستغرق وقتا يعدل كل ما سبق.

(١٦)

التقى أصدقاؤنا الأربعة في صباح اليوم التالي على شاطئ البحر. جلسوا تحت مظلتين ألوانهما رائعة يحتسون الشاي بالنعناع ويتحدثون عن الغرائب والعجائب التي تكتنف العالم والظواهر التي تستعصي على الفهم. ألقت «غادة» حزورة حلتها «فريدة» من فورها. عرج الحديث على لغز «هولة أوديب» الذي تقول كلماته: «يمشي في الصباح على أربع وفي الظهر على اثنتين وفي المساء على ثلاث». تطرق الحديث أيضا إلى «ألغاز بلقيس» التي يقول أشهرها: «سبعة وجدوا مخرجا وتسعة وجدوا مدخلا واثنان انساب منهما مجرى وواحد شرب من هذا المجرى».

أخرج «علاء» من جيبه بضع أوراق راح يوزعها عليهم. سألت «فريدة»:

-ما هذه الورقة يا «علاء»؟

-جدول يوضح المراحل التي مر بها الكنز مربوطة بالتاريخ. وجدت أنه من المفيد أن يكون لدينا هذا البيان في صفحة واحدة.

-رائع.

-أمضيت ليلة من البحث. لم أَنَمْ لحظة منذ الأمس.

المدينة الحائز من إلى المدة بالأعوام

أورشليم (الهيكل ١) اليهود ٩٥٠ ق. م ٥٨٧ ق.

م

١٠٢٠

أورشليم (الهيكل ٢) اليهود ٥١٥ ق. م ١٧٠ ق.

م

أورشليم (الهيكل ٣) اليهود ٢٠ ق. م ٧٠م

روما الرومان ٧٠م ٤١٠م ٣٤٠

إيطاليا وبلاد الغال (تولوز وناربورن) إسبانيا (برشلونة وإشبيلية وماردة وطليطلة) القوط ٤١٠م ٤١٨م ٣٠١

الأندلس المسلمون ٧١١م ٧١٥م ٤

دمشق	الأمويون	مطلع ٧١٥م	منتصف ٧١٥م	٦ شهور
مكة	الأمويون	منتصف ٧١٥م	أواخر ٧١٥م	٦ شهور
الحبشة	الأحباش	مطلع ٧١٦م	١٢٠٩	٤٩٣
الإسكندرية	كيلوس	١٢١٠	١٢١٥م	٥
؟؟	؟؟	١٢١٥م	٢٠١٣	٧٩٨
عمر الكنز		٩٥٠ ق. م	٢٠١٣	٢٩٦٣

علقت «فريدة»:

-ممتاز، لكن نحتاج بعض الشروح من ٧١٥ ميلادية.

-حسنا يا «فريدة»، رحل «الوليد» في منتصف ٧١٥ ميلادية. يعني ذلك أن الكنز كان مستقرا على كسوة الكعبة في التوقيت نفسه؛ لأنه أمر بذلك قبل وفاته. لم تدُم الجواهر على أستار الكعبة طويلا فانتقلت في نهاية ٧١٥م إلى «أكسيوم» لتصلها في بداية ٧١٦م. ظل الكنز في الآنية الذهبية بكنيسة مريم العذراء من بداية ٧١٦م حتى مطلع ١٢٠٩ ميلادية تقريبا.

-١٢٠٩؟!

-العام الذي هرب فيه «كيلوس» بالكنز فأخفاه قبل أن يقدم على البابا الذي تحفظ عليه سنة في الكرازة ثم جرده وطرده.

علقت «غادة»:

-وأين تراه أخفاه يا «علاء»؟

-أين أخفاه؟

-نعم.. أين أخفاه؟

-سؤال جيد.

قبل أن يهم «علاء» بالإجابة أو بالأحرى قبل أن يرتجلها، أمسكت «فريدة» بطرف الحديث قائلة:

-اسمعوا يا جماعة.. «فيبي» ستصل اليوم هنا مع والدتها مدام «إنجيلا». إنها متخصصة في اللاهوت والتاريخ الكنسي لدرجة أنها تحاضر خارج مصر. علاقتي بها طيبة للغاية. سأحكي لها القصة وأطلب منها مساعدتنا، واسمح لي يا «مدحت» أن أدعوها مساء اليوم في جلسة الشاليه.

-بكل تأكيد.

بالفعل، التقت «فريدة» و«غادة» جارتهما «فيبي» في الظهيرة. حكت لها

«فريدة» عن القصة منذ البداية. أمضت «فيبي» الساعات بين العصر وما بعد نزول الظلام، تفكر وتستدعي معلوماتها عن هذه الفترة. في المساء التقت المجموعة من جديد في شاليه «مدحت». قامت «غادة» بتقديم «علاء» و«مدحت» إلى «فيبي» التي لم تضيع وقتا فانطلقت قائلة:

-قبل أن أرد على سؤالكم بخصوص مكان إخفاء الكنز في الإسكندرية لديَّ نقطتان أود أن أتحدث عنهما.

-تفضلي.

-شكرا يا «غادة».. أولا: لديَّ ملحوظة حول الجزء الخاص بالهيكل في الجدول الرائع الذي أعده «علاء». هناك خلط بين الهيكل والمائدة، كما أن هناك فرقا بين تخريب الهيكل ونهبه. سجل التاريخ لنا هيكلين: الهيكل الأول أو هيكل سليمان، والهيكل الثاني، كما سجل لنا خرابين: «نبوخذ نصر»، حوالي ٥٨٧ قبل الميلاد، و«تيطس»، عام ٧٠ قبل الميلاد. عدا ذلك كان مجرد نهب، وأنا هنا لا أقلل من أهمية حوادث النهب؛ لأنكم بالأساس مهتمون بالمائدة، وهي من منقولات الهيكل. وعليه فلديَّ تحفظ على ما أطلق عليه «علاء» في الجدول «الهيكل الثاني» عام ١٧٠ قبل الميلاد ونسبه إلى «المكدونيين» القادمين من سوريا. لقد كان مجرد نهب لمحتويات الهيكل وإتلاف لمظهره

العام. الحقيقة أن التجديد الذي قام به «هيرودوس» لم يكن لإصلاح ما أتلفه السوريون عام ١٧٠ قبل الميلاد، بل ما أحدثه الإمبراطور الروماني كروسس() عام ٥٤ قبل الميلاد، وهذه حادثة نهب أخرى. هذا المعبد الذي جدده «هيرودوس» هو عينه الذي دخله يسوع بين ٢٧ و٣٠ ميلادية وطهره من البائعين الذين شغلوا باحته. إن حوادث نهب الهيكل عبر التاريخ كثيرة وقد يصعب تتبعها.

توقفت «فيبي» عن الكلام للحظات نظرت خلالها إلى وجوه مستمعيها فوجدت علامات الدهشة وخيبة الأمل ترقص على وجوههم. لسان حالهم يقول: «ليتنا لم نستعِن بها». لم تتوقف «فيبي» كثيرا عند هذه النقطة. أخرجت العهد القديم من جراب الكرسي الكهربي. فتحته عند صفحة حددتها آنفا ثم واصلت الحديث دون أن يقاطعها أحد:

-يحدثنا الكتاب المقدس عن إحدى عمليات النهب تلك، واسمحوا لي أن اقرأ على مسامعكم الفقرة التالية: «في السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشق، ملك مصر، إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان فعمل الملك رحبعام عوضا عنها أتراس نحاس وسلمها ليد رؤساء السعاة الحافظين باب بيت الملك»( ).

-ماذا يعني ذلك؟!

-يعني ذلك يا «فريدة» أنه بعد موت سليمان بخمس سنوات، وتحديدا عام ٩٢٦ قبل ميلاد يسوع، هاجم «شيشق»، حاكم مصر، «أورشليم» ونهب الهيكل فاضطر ملك اليهود، «رحبعام»، إلى تصنيع «ريبلكا» أو نسخ مقلدة للأشياء التي سرقها من هناك.

علق «علاء» في نبرة من اليأس والإحباط:

-هذا الأمر يعيدنا إلى نقطة الصفر. أليس كذلك يا «فيبي»؟

-ليس بالضبط. ما أريد أن أضيفه هنا أن الموائد التي اختفت مع السبي البابلي، وعددها يناهز السبعين ربما.. وأكرر: «ربما»، كانت من النحاس، أما الموائد الأصلية فظفر بها الفراعنة. ربما هذا ما دفع بني إسرائيل بعد ذلك حين خرجوا مع «موسى» بذهبهم من مصر إلى القول بأن هذه المشغولات الذهبية...

-بضاعتهم رُدَّت إليهم.

-بالضبط يا «مدحت»، وجزء يسير من حقوقهم.

-والمائدة الأصلية التي تخص «سليمان» نفسه؟!

-هذه المائدة يا «غادة» قيَّد الرب لها من أنقذها. شيء عجيب حقا أن تبقى هذه المائدة في «أورشليم» من سنة ٩٥٠ قبل الميلاد تقريبا وحتى نقلها إلى روما بواسطة «تيطس» عام ٧٠ ميلادية! يبدو أنها كانت في مكان أمين وحصين، أو أن أحد اليهود كان موكلا إليه إخفاؤها حين يستشعر الخطر أو تبلغه العيون باقتراب التهديدات.

عقبت «فريدة»:

-جميل يا «فيبي»، لقد كادت أنفاسي تتوقف.

-عمدت إلى ذكر ذلك فقط للأمانة العلمية. وللعلم، يميل المسلمون إلى تسمية «الخراب» بـ«الإفساد».

-صحيح. هذا ما ورد في سورة «الإسراء»: «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا».

-فعلا يا «علاء»، ربط البعض الإفسادتين الشهيرتين بعامي ٥٨٧ و٧٠، أي

«نبوخذ نصر» و«تيطس»، بينما رأى آخرون أن الإفسادة الأولى فقط هي التي تحققت وأن الإفسادة الثانية أو «رجسة الخراب» التي وردت في سفر «دانيال» أو العلو الأخير إن شئت أو حتى زوال بني إسرائيل هي أمور قادمة في آخر الزمان.

-جميل، والنقطة الثانية يا «فيبي»؟

-إذا لم يكن لديكم أسئلة حول الجزء الأول فإن النقطة الثانية يا «غادة» تخص «أبانا مكاريوس».

-«أبونا مكاريوس»؟!

-«كيلوس» يا «غادة».

-آه. ماذا عنه هو الآخر؟ لقد اكتشف البابا «يؤانس» أنه كان فاسدا وكاذبا وربما سارقا.

-لا أدري، لكن هناك شيئا غامضا في علاقته بإمبراطور الحبشة «جيبري ميسكل لاليبلا»( ).

-كيف؟!

-أقول لك يا «فريدة».. أولا: بعد سقوط «أورشليم» في يد صلاح الدين، حاول

«جيبري» بناء «أورشليم» أخرى في الحبشة، الأمر الذي أغضب «كيلوس».

-لديه حق.

-فعلا يا «غادة». زيدي على ذلك أن زوجة الإمبراطور، الملكة ماسكال كيبرا( )، كانت امرأة متسلطة. لقد حثَّت «كيلوس» على أن ينصب أخاها «هارون» أسقفا، لكن «كيلوس» رفض. لا أشك أيضا في أنها حاولت إغراءه بأسلحة الأنثى.

-تقصدين أن «كيلوس» كان مظلوما؟

-لا أدري يا «علاء».

-كيف ذلك وقد أدانه «يؤانس»؟!

-اسمع يا «مدحت».. أحيانا يكون من الحكمة أن تضحي بشاة ليحيا القطيع.

-بمعنى؟!

-بمعنى يا «غادة» أن «جيبري»، إمبراطور الحبشة، أرسل هدايا لملك مصر مع نسيبه، «هـارون»، ليشهد بفساد «كيلوس». هل تعتقد أن «يؤانس» سيقف ضد التيار؟! لا تغفل عن أن الحبشة كانت دوما شوكة في خاصرة مصر. كان من الحكمة مهادنة الأحباش على الأقل ريثما يكف الصليبيون عن

هجماتهم. لقد كانت مصر ببساطة بين مطرقة الصليبيين وسندان الأحباش. هل تعتقدون أن «يؤانس» في ظل هذه الظروف الملتبسة سيتحدى الجميع ويقف بجوار «كيلوس»؟

-كان يجب أن يفعل ذلك لو أحس أنه بريء.

-أنا لا أعرف يا «فريدة» إذا كان بريئا أم لا، وما دامت الكنيسة القبطية خطّأته فلا بد أنه مدان. بالمناسبة لديَّ بحث عن السرقات الدينية رصدت فيه أكثر من مائة حالة على مر التاريخ، لكني ركَّزت فيه بصورة خاصة على سرقة الآثار الدينية ذات القيمة العالية. لم أذكر بطبيعة الحال واقعة «كيلوس» لأنني لم أنتبه للربط المذهل الذي قمتم به بين الآنية وكنز المائدة. على أي حال كان هذا استطرادا للأمانة التاريخية، والآن تريدون أن تعرفوا أين خبأ «كيلوس» كنز المائدة..

صاح الجميع في صوت واحد:

-نعم.

-أقول لكم تصوري.. بعد عام ١١٨٢ تقريبا كسر «قراجا»، والي الإسكندرية في زمن «صلاح الدين»، أربعمائة عمود تقريبا كانت تحيط بعمود السواري ورماها في الميناء الشرقي لإبعاد سفن الأعداء. استنتاجي أن «كيلوس» دفن

الكنز في أحد هذه الجور بـ«كوم الشقافة». والآن «كيلوس» حر. لا أستبعد أن «يؤانس» حاول أن يضغط عليه لمعرفة مكان الكنز، لكنه لم يصل معه إلى شيء. صبر ونال كما يقولون، لكنه لم يكن بالغباء الذي يجعله ينطلق مباشرة إلى الكنز، فربما كان مُراقَبا من جهة البابا، كما أن العامة عرفوا عنه اعوجاجه وسوء سيرته. لا يستطيع أن ينبش كنزه ولا يستطيع أن يتعامل مع أهل جلدته. ما الحل إذًا أمامه؟

-يبيعه لليهود.

-جميل يا «غادة»، فالثابت تاريخيا أن اليهود تدفقوا على مصر في ذاك التوقيت بسبب اضطهادهم في أوروبا، ونظرا لأن صلاح الدين دعاهم بعد دخوله «أورشليم» عام ١١٨٧ ميلادية للإقامة فيها، ناهيك عن فرارهم من الأندلس بعد تداعيها وضعف العرب فيها عقب معركة «العقاب». كان بمقدور «كيلوس» فعلا أن يتوجه إلى كبير اليهود في مصر، إبراهيم بن موسى بن ميمون، أو لسدنة معبد «الغريبة» بجزيرة «جربة» بتونس فيعرض عليهم الكنز، لكن «كيلوس» لم يكن سيئا للحد الذي يبيع فيه الكنز لمن يعتقد أنهم أسلموا المسيح للقتل. لا بد أنه شعر أنهم سيفعلون معه الشيء ذاته.

-حسنا. يبيعه للأجانب من النصارى.

-ممكن يا «علاء»، لكن الأجانب في ذاك التوقيت كانوا يعانون التضييق والتفتيش القسري في الموانئ بسبب الحروب الصليبية. في عام ١٢١١ ثار بعض الفرنجة في الإسكندرية فقدم عليهم السلطان العادل وقبض عليهم ونكل بهم. هذا ما رواه المقريزي في «السلوك لمعرفة دول الملوك».

قاطعت «فريدة»:

-هناك نقطة أخرى يا «فيبي».

-ما هي؟

-لو افترضنا جدلا أن «كيلوس» لم ينتظر وفاة «يؤانس» وأنه أخرج الكنز وباعه خلسة، ماذا سيفعل بالنقود في مجتمع نبذه؟

-فعلا يا «فريدة».

علق «علاء»:

-لو أنه انتظر حتى ١٢١٨م لكان أفضل له؛ فوقتها يكون «يؤانس» قد مات وضربت الحملة الصليبية الخامسة حصارا خانقا حول «دمياط» فيلتحق بهم ويطلب من قادتها الحماية، خاصة إذا استدعينا دوره السابق في التمهيد

للصليبيين في «فوة».

-إن قضية «لو» تلك غير واردة؛ لأننا نقرأ التاريخ بشكل عكسي، و«كيلوس» لم يكن لديه القدرة على أن يرى المستقبل أو يتنبأ به. إنه إنسان يتحرك بغرائز البشر ومنطقهم. اسمعوا يا جماعة، يبدو أن «كيلوس» هذا كان ذكيا. علينا أن نفكر بعقله هو.

-كيف يا «فيبي»؟

(١٧)

«كيف؟».. هذا هو السؤال. كيف يمكننا أن نطلق العنان لخيالنا دون أن نشطح به فنشوه التاريخ ونسيء لشخوصه؟ لو أمكننا فقط أن نستعيد الأصوات أو نُحضر روح «كيلوس» أو نسافر عبر الزمن لعرفنا الحقيقة، لكن هل حقا قد تريحنا الحقيقة؟ وهل الذين استحضروا الماضي، بل باعوا أرواحهم للشيطان، مثل الدكتور «فاوستس»، في سبيل ذلك استراحوا ووجدوا ضالتهم؟ إنه من الحُمْق أن نصمم على كشف المستور كله. بعض الأمور يجب أن تظل في أكفانها لأنه عندما نزيل النقاب عنها تفقد بريقها.

«كيف نفكر بعقليته هو، عقلية كيلوس؟»، أطرق أصدقاؤنا. طال صمتهم، وبدا الرد بعيد المنال. عقَّبت «فيبي»:

-حسنا يا جماعة. هذا الرجل خسر كل شيء ولا يستطيع أن يتمتع بالكنز

أو أن يبيعه لمصري أو لأجنبي. رجل لا يمكن، طبقا لقناعاته المسيحية الأرثوذكسية، أن يسلم أو يتهود. لا يستطيع أن يحول الكنز إلى مال سائل. ماذا يفعل؟

ردد الجميع بجمل قصيرة متتابعة:

-ماذا يفعل؟

-ماذا يفعل؟

-ماذا يفعل؟

-«علاء».. بغض النظر عن الكنز، أظن أن هذه الرواية ستُحدث ضجة مثل رواية «شفرة دافنشي».

-أتمنى ذلك يا زوجتي الحبيبة. لدينا في تراثنا ما يصنع مائة رواية مثلها، لكننا.. لكننا...

-متكاسلون.

-شكرا يا «فريدة»، هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها.

-على الرحب والسعة. حسنا، دعونا نتوقف هنا للعشاء. ماذا تقترح يا «مدحت»؟

-سأطلب لكم «البيتزا» تحية لـ«فيبي».

في أثناء تناول «البيتزا» والمثلجات، أحس الجميع بالرغبة في تغيير مجرى الحديث بعد أن أصبحوا أسرى لهذا الكنز. انطلقت «فريدة» قائلة:

-لقد سعدنا بك فعلا يا «فيبي»، أليس كذلك يا «غادة»؟

-بلى يا «فريدة».

-شكرا لكم جميعا. لقد سررت بمعرفتكم.

-لِمَ لا تنضمين إلينا في البحث عن الكنز يا «فيبي»؟

-نعم يا «فيبي»، لم لا تفعلين ذلك كما تقول «غادة»؟

-لأنني ببساطة لديَّ كنزي يا «فريدة».

قاطع «علاء»:

-كيف؟

-منذ أن تعرضت لحادث، وأنا بعدُ صغيرة، ألزمني هذا المقعد الذي أشعر بالامتنان له، شغلت نفسي بالقراءة الروحية ثم تخصصت في اللاهوت والتاريخ الكنسي. انفتح أمامي عالم ساحر من المحبة. أدركت أن يسوع ما أجلسني على هذا المقعد إلا لأنشر محبته في المحاضرات التي ألقيها في

أصقاع شتى، فضلا عن الكتب التي أنشرها. هذا هو كنزي الذي يعدل عندي ذهب «تَرْشِيشَ وأوفير»( ) و«ألدرادو» ومناجم «مهد الذهب»( ) وجواهر «سريلانكا» و«مهراجات» الهند و«خبيئة الدير البحري» وحجر الفلاسفة الذي يحوِّل التراب إلى ذهب وكنوز القراصنة ودفائن خط سكك حديد الحجاز ومغارة «علي بابا» وعروق الذهب في النوبة.

-رائع. أرفع لك القبعة.

-شكرا يا «مدحت»، والآن لنعُد إلى سؤالنا عن الكيفية التي سيتصرف بها «كيلوس».. حين نفكر خارج الصندوق نستطيع أن نكشف السر ونحل العقدة تماما كما تمكن الإسكندر من حل «العقدة الجوردية»( ).

-كيف؟

-كيف ماذا يا «غادة»؟

-كيف حل الإسكندر هذه العقدة؟

-لم يجد لها طرفا فضربها بسيفه.

-لكن حالتنا مختلفة. لدينا طرف نمسكه.

-صحيح، والأمر هنا لا يحتاج إلى سيف؛ يحتاج فقط إلى عقول نابهة. إنما

ضربت هذا المثل من باب المجاز ليس إلا. والآن يا «غادة».. أبلغينا أنت ماذا يمكن أن يفعل «كيلوس» بالكنز؟

-يذهب إلى أوروبا ويحاول بيعه هناك.

علقت «فريدة»:

-منطقي فعلا. أنا أرشح إنجلترا، فقد كان على عرشها في ذاك الوقت الملك «جون» الذي ارتبط اسمه بـ«الماجنا كارتا» و«روبين هود». كان الرجل مغرما بالكنوز وولعا بجمعها. ما رأيك يا «فيبي» في هذا الطرح؟

-جميل يا «فريدة»، لكني شخصيا أرجح روما.

-لِمَ؟

-ظني أن تفكير «كيلوس» هداه إلى التوجه إلى كنيسة «بطرس الرسول» فيعلن اتباعه للمذهب الكاثوليكي ويحاول أن يحظى بمكانة لدى البابا بالكنز.

عقب «مدحت»:

-معقولة؟!

-نعم. أرجح أن «كيلوس» سيتجه فعلا نحو روما، خاصة إذا عرفنا الآتي: أولا:

أن البابا الكاثوليكي الذي كان جالسا على المقعد الرسولي في ذاك الوقت واسمه «إنوسنت الثالث»( ) شن حربا ضد الزنادقة والمهرطقين المسيحيين، رافعا شعار ما قاله بطرس الرسول في رسالته الثانية: «سيكون فيكم أيضا معلمون كذبة»( ). القبطية من وجهة نظر «إنوسنت» كانت ضمن هذا التصنيف، بل إن بدايات الفتن والاختلاف في الديانة المسيحية خرجت من الإسكندرية.

-تقصدين فتنة «آريوس»؟

-نعم يا «فريدة»، و«الغنوصية» أيضا.

-ماذا؟!

-لا عليك. هذا موضوع فلسفي شائك جدا، ولن يفيدنا كثيرا هنا.

-لا بأس.

-مما تقدم، نستطيع أن نستنتج أن «إنوسنت» سيرحب بأي مهرطق يتبنى «الكاثوليكية» وسيسعى إلى استغلال هؤلاء الأشخاص لإظهار شعوذة الكنائس الأخرى وبطلان ممارساتها.

-وثانيا؟

-ثانيا يا «غادة»: ما ذكرته منذ نحو ساعة عن الآثار الدينية. كان «إنوسنت» متذمرا من ظهور البقايا والحاجيات التي تُنسب إلى المسيح وأمه وتلاميذه والمريميات هنا وهناك في أنطاكية وفي الإسكندرية وسانتياجو في إسبانيا، حيث رفات «جيمس» والبندقية، حيث رفات القديس «مارك» وغيرها.

-«مارك» هنا هو «مرقص». قالت لي مدام «إنجيلا»: إن التجار «البنادقة» سرقوا رفاته من الإسكندرية.

-بالضبط يا «فريدة». كان البابا «إنوسنت» حاقدا بشكل خاص على «البنادقة» لأنهم أيضا باعوا تاج الشوك الذي وضع على رأس السيد المسيح حين غنموه خلال الحملة الصليبية الرابعة.

-حسنا، وبعدُ؟

-كان «إنوسنت» يا «غادة» مستاء من حج المسيحيين إلى الكنائس التي تضم هذه البقايا والآثار التي جمعتها الإمبراطورة «هيلانة» آنفا قبل أن تتفرق في الأصقاع عقب تخريب كنيسة القيامة عام ١٠٠٩ ميلادية: أجزاء صليب الصلبوت وقميص المسيح والقصبة التي أعطوها له كصولجان ومنديل «فيرونكا» ومسامير الصلب والإسفنجة المقدسة والسوط وأشياء أخرى من هذا القبيل. أراد أن يجمع ويضم كل هذه الأغراض والكنوز إلى رفات

القديس «بطرس» في روما، حاضرة «الكاثوليكية»، ترسيخا لمبدأ «الوراثة البطرسية»( ) التي دشنها المسيح بقوله: «وأنا أقول لك أيضا: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي»( ). أراد أن تصبح كنيسته ولا شيء غيرها مقصد كل المسيحيين ريثما يتمكن من وضع يده على كنيسة «القيامة» في «أورشليم». أراد «إنسونت» أن يضع حدا لهذا الأمر، خاصة بعد أن زاد الاحتيال بخصوصها.

-كيف؟

-أضرب لك مثلا يا «غادة»، وأرجو أن يعذرني الرجال هنا. الغرلة، أو القُلْفَة، هي جلدة الذكر التي تُقطع في الختان. خُتن المسيح بطبيعة الحال لأنه كان يهوديا. أنا شخصيا لا أتخيل أن أحدا فكر في الاحتفاظ بقطعة الجلد تلك. ظهرت بعد ذلك لوحات زيتية ضخمة تصور عملية ختان يسوع.

-أنت تمزحين! أليس كذلك؟

-أبدا يا «فريدة». هناك ثماني عشرة كنيسة في ثماني عشرة مدينة، أو نحو ذلك، أعلنت في توقيت واحد أنها تمتلك هذه القطعة، بينها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. كان «شارلمان» قد أهداها للكنيسة يوم تتويجه إمبراطورا.

-ومن أين حصل «شارلمان» عليها؟

-من زوجته التي أعطته إياها كهدية الزفاف لعلمها بولعه بهذه المقتنيات. تكرر هذا الأمر مع رأس يوحنا المعمدان.

-النبي يحيى؟

-أجل يا «مدحت». ظهرت ثلاثة رؤوس كل يزعم أنها له.

-مثل رأس الحسين؟

-تماما يا «علاء». أحست الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن البساط يُسحب من تحتها وأن كنائس أخرى أقل شأنا تنافسها في استقطاب الحجاج والفوز بتبرعاتهم. وهنا نعود إلى «إنسونت»، الذي قرر عام ١٢١٥ أن توضع هذه البقايا في صناديق زجاجية تجنبا لسرقتها أو غشها أو تقليدها أو المزايدة عليها. بالطبع كان لديه أكبر عدد من هذه الآثار وأراد أن يزيدها.

-تقصدين أن «كيلوس» كان على علم برغبات «إنوسنت»؟

-من دون شك يا «مدحت»، وحاول استغلال هاتين النقطتين في التقرب للبابا «إنوسنت» ليحظى بالمكانة والنعيم في روما.

-رائع.

-شكرا يا «فريدة».

-هل تودين إضافة شيء يا «فيبي»؟

-بالفعل يا «غادة». ذكر كتاب «سير القديسين» أن قسا أو مرنِّما كنسيا من «بشمور» تزوج ثم ترمل ثم تزوج فطرده أهلها. لجأ القس إلى الكرازة في الإسكندرية وانخرط في الخدمة بها، لكن البابا «يؤانس» حين عرف بخبره وبَّخ كهنته وسرَّحه.

-وأين «بشمور»؟!

-المسافة الساحلية الرملية بين فرعي النيل يا «علاء». «البشامرة» من الأقباط المتزمتين وسبق لهم الثورة ضد الحكم الإسلامي في زمن الخليفة المأمون.

قاطعت «فريدة»:

-حسنا، وما علاقة «البشموري» بـ«كيلوس» يا «فيبي»؟

-سؤال جيد يا «فريدة». من المؤكد أن «كيلوس» كان بحاجة إلى مساعد، إلى رجل يكنُّ كراهية لبابا الإسكندرية.

تدخل «مدحت» موجها سؤالا إلى «فيبي»:

-وكيف التقيا؟

-عام ١٢١٢ قَدِم الملك «الكامل» إلى الإسكندرية ليستقبل أخاه «المعظم عيسى»، حاكم دمشق. تزيَّنت الإسكندرية بالقناديل والمصابيح. السكندريون، على عكس النوبيين، كانوا على علاقة خاصة مع الأيوبيين.

قاطع «علاء» مضيفا:

-فعلا، فهم أول من قطعوا الخطبة لـ«العاضد» الفاطمي، وقتلوا من قبل «قديد القفاص»، الداعية الشيعي الذي رثى الفاطميين. آسف للمقاطعة يا «فيبي».

-بالعكس. المهم قابل «كيلوس» «البشموري» في هذه الأجواء بالقرب من «بيمارستان الإسكندرية» أو في منطقة «العطارين»، حيث عمل «البشموري» في سوق «الزجاجيين» أو «القزازين».

-تقولين «الزجاجيين»؟!

-نعم يا «مدحت».

-سمعتم يا جماعة؟! إذًا «البشموري» هو من صنع القارورة. أليس كذلك يا «فيبي»؟

-ليس لديَّ أدنى شك؛ فالبشامرة كانوا يتقنون صناعة الفواخير والقوارير؛

نظرا لطبيعة التربة في المنطقة التي عاشوا فيها.

-جميل يا «فيبي». لديك حس روائي مذهل.

-حقا يا «علاء»؟

-من دون شك.

-المهم، تصاحب «كيلوس» و«البشموري» منذ هذه اللحظة. اجتمعا على كراهية «يؤانس» واتفقا على السفر بالكنز إلى روما. بحثا عن صديق ثالث سرعان ما ساقته الأحداث لهما.

-كيف؟

-كان «الكامل محمد» يا «غادة» قد أمر في أثناء زيارته للإسكندرية بهدم دير «البوكاليا» أو «دير البقر»؛ لأنه كان يشرف على المرفأ. خشي أن يستخدمه الصليبيون إذا عنَّ لهم غزو الإسكندرية. لم يعترض «يؤانس»، الأمر الذي أغضب قمصا أرمني الأصل كان يعيش في الدير ويخفي ميلا للملكيين.

-الملكيون؟!

-يعني الكاثوليك الشرقيين يا «فريدة». وبالمناسبة تنازع الأقباط الكاثوليك ملكية هذا الدير لأهميته مع الأقباط اليعاقبة.

-الأرثوذكس؟

-بالضبط يا «غادة».

-حسنا، وبعدُ يا «فيبي»؟

-توجه القمص إلى البابا ليذكره بما فعله «تورانشاه» آنفا حين أرسله شقيقه صلاح الدين إلى «المريس» لمحاربة «الكنوز» الموالين للفاطميين وكيف أنه حول كنيسة العذراء في النوبة إلى مسجد.

-وهل حدث ذلك بالفعل؟!

-هذا ما أورده «أبو المكارم جرجس بن مسعود» في كتابه عن الكنائس والأديرة. يؤكد كلامه ما ذكره «علاء» منذ دقائق عن حنق الأيوبيين على النوبيين لتعاطف أهل الجنوب مع الفاطميين. على أي حال، أراد القمص أن يقول للبابا إن «الكامل» ما هدم الدير إلا ليبني مسجدا مكانه. ذكره بأهمية «دير البقر» الذي شهد مقتل «مرقص الرسول»، رمز الكرازة برمتها.

-هذا شائق جدا. فعلا لم يكن ممكنا أن نعرف هذا كله لولا وجودك معنا يا «فيبي». أكملي.

-شكرا يا «مدحت». المهم، احتد القمص في الكلام فطرده «يؤانس» شر

طردة. خرج «الأرمني» وقد امتلأ صدره بالغضب والحقد على «يؤانس». اختفى بعد ذلك. كان من السهل أن يلتقي «كيلوس» و«البشموري» ويتفقوا على السفر.

-لكن كيف دبروا وسيلة السفر؟

-ليس لديَّ إجابة محددة عن هذا السؤال يا «غادة»، لكن الميناء كان يعج دوما بالسفن الراحلة والقافلة. في عام ١٢٠٧ أبرم البيازنة...

-البيازنة؟!

-نعم يا عزيزتي. سكان مدينة «بيزا» الإيطالية التي تضم البرج المشهور.. أبرموا اتفاقية تجارية مع العادل. في عام ١٢٠٨ أبرم البنادقة اتفاقا مشابها.

-لكن عمليا كان الأوروبيون والأيوبيون في حالة حرب.

-يرد على ذلك المؤرخ «وليم الصور»، ودعوني أقرأ من ملفاتي هنا، يقول: «كل ما يحتاج إليه ذلك الجزء من عالمنا من التوابل واللؤلؤ والنفائس الشرقية والسلع الأجنبية كان يُحمل إليها (الإسكندرية) من الهند وسبأ وبلاد العرب والإثيوبيتين، وكذلك من فارس والبلاد الأخرى المجاورة. وكانت هذه البضائع تُحمل إلى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر.. وكانت البضائع تُفرَّغ في ميناء عيذاب على ساحل ذات البحر ومنها تهبط مع مجرى النيل

صوب الإسكندرية». انتهى كلام «وليم الصوري» الذي نستشف منه زيادة عدد تجار جنوب أوروبا وجزر المتوسط في الإسكندرية في ذاك الوقت. لا بد أن «كيلوس» و«البشموري» و«الأرمني» اهتدوا إلى إحدى سفنهم. عرضوا على ربانها مبلغا كبيرا من المال لينقلهم في سرية تامة، أو ربما استأجروا قاربا متوسط الحجم حتى لا يلفتوا نظر قراصنة المتوسط إليهم، وهكذا أصبح كنزكم في عرض البحر.

(١٨)

بعد أن أدلت «فيبي» بدلوها وفتحت آفاقا رحيبة من البحث والمعرفة أمام المغامرين الأربعة استأذنت في الرحيل. عاد أصدقاؤنا إلى الالتفاف من جديد حول الخريطة، حاولوا الاستمرار في المناقشة، لكن عقولهم أبت أن تستجيب، تواعدوا على اللقاء في صباح اليوم التالي.

في فترة الضحى كان اللقاء في شرفة الدور الثاني من شاليه «مدحت»، استمتع أصدقاؤنا بالقهوة و«بسكويت الشوكولاته» وهم يتطلعون إلى زرقة البحر ويتخيلون «كيلوس» ورفيقيه في السفينة يمخرون عباب المتوسط نحو روما، افتتحت «غادة» النقاش قائلة:

-شرحت لنا «فيبي» الملابسات التي حدت بالمطران المخلوع «كيلوس»؛ ليركب البحر ومعه «البشموري» و«الأرمني»، مصطحبا كنزه للبابا «إنوسنت الثالث» في روما.

علق «مدحت»:

-تعلمون يا جماعة.. تذكرت شيئا عن الخرافات المرتبطة بالإبحار لها علاقة بقصتنا.

-ما هو يا «مدحت»؟

-العُقد الثلاث.

-عقد سليمان؟

-نعم يا «فريدة»، كان بحارة شمال أوروبا على ما أتذكر يعقدون ثلاث ربطات قبل الإبحار: واحدة طلبا للريح المواتية، والثانية لحبس العاصفة، والثالثة.. نسيت.

-وهل يعني ذلك أن السفينة تنتمي لشمال أوروبا؟

-لا أدري يا «غادة»، هذا مجرد عصف للذهن وحسب.

عقب «علاء»:

-وهذا العصف مفيد يا قبطان، لكن يبدو أن «كيلوس» لم يصل إلى روما، والأرجح أن السفينة التي استقلها جنحت بركابها إلى إحدى جزر المتوسط.

-كنز مشئوم حقا!

-فعلا يا حبيبتي، عاش «كيلوس» في الجزيرة لفترة لا نعرفها مع نفر أو اثنين أو أكثر، من المؤكد أنهم لم يستطيعوا السباحة لأقرب نقطة مأهولة بالسكان، ولم تمر عليهم أي سفن، اقتاتوا خلال هذه الفترة على الثمار والأسماك، أشعلوا النار وصنعوا القارورة، حين أدرك «كيلوس» أنه هالك لا محالة أخفى الكنز في الجزيرة وحفر الرقعة الجلدية المأخوذة من أحد النافقين بالنار، ووضع الخريطة في الزجاجة وألقاها؛ لتظل القارورة في البحر المتوسط من الربع أو النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى ٢٠١٣، قرابة ثمانية قرون.

-لكن يا زوجي العزيز، لماذا لم يخُط «كيلوس» خطابا بدلا من الخريطة؟

-أولا بأي لغة يكتب الخطاب؟ القبطية؟ أم العربية؟ أم «الأمهرية» التي لا أشك أنه كان يعرفها لأنه عاش في الحبشة؟ الرموز يا «غادة» أقوى من كل اللغات، كما أنها مقتضبة. ثانيا لأنه ربما أراد أن يخاطب أناسا لديهم من المعرفة والبحث ما يجعلهم جديرين بالوصول إلى الكنز. ثالثا أراد أن يُبقي نفسه خارج دائرة الشك، لا سيما بعد أن تشوهت سمعته في الإسكندرية.

أخذ «مدحت» بناصية الحديث قائلا:

-تعرفون أن الرقعة الجلدية لم تحدد إحداثيات الجزيرة المقصودة، فهذه أمور أحدثتها التقنية الحديثة؛ لذا فإن معدل الخطأ وهامشه قد يكونان

كبيرين جدا، لقد راجعت جزر جنوب غربي المتوسط فوجدت أنها صغيرة في معظمها ومتقاربة لدرجة أن الخرائط الجغرافية تغفلها ما لم يكن هناك حاجة للحديث عنها تحديدا، استبعدت الجزر اليونانية والفرنسية وحصرت بحثي في الجزر الإيطالية؛ لأنها متاخمة للدائرة رقم (٨)، لا سيما أننا نعرف الآن أن وجهة «كيلوس» كانت روما.

-جميل جدا!

-أجل يا «فريدة»، لكن ما زال هناك تحديات كبيرة، فعدد الجزر الإيطالية بضع وخمسون.

-ماذا؟!

-نعم يا «غادة»، على أي حال حصرت بحثي من جديد في مجموعة جزر «سردينيا» الأكثر قربا للدائرة رقم (٨).

-وكم عدد هذه الجزر؟

-إحدى عشرة فقط يا «علاء».

-ما زال أمرا صعبا، فكل جزيرة تمثل حوالي ١٠٪ من الاحتمالات.

-تقريبا يا «فريدة».

-هل يعني ذلك أننا سنقوم باستبعاد جزيرة تلو الأخرى؛ لتحظى الأخيرة بنسبة الاحتمال الأكبر؟!

-ولماذا نفعل ذلك يا «غادة» ولدينا رمز نتجاهله؟

-ما هو يا «مدحت»؟

-الجمجمة يا «علاء».

قاطعت «فريدة» قائلة:

-استمعوا لما تقوله دائرة المعارف العربية عن «سردينيا»: «غزا المسلمون سردينيا حوالي أربع مرات، لكنهم لم يتمكنوا من فتحها؛ لأن الجزر الصغيرة المتناثرة حولها تسببت في تكسير السفن وغرقها، خلال خلافة الوليد بن عبد الملك بين ٧٠٥ و٧١٠ ميلادية أرسل موسى بن نصير شقا من جيشه إلى سردينيا فغنموا منها الكثير، لكن أثناء عودتهم غرقت سفينتهم».

-هذا يؤكد فعلا أن سفينة «كيلوس» قد تحطمت وغرقت، وأن الأمواج ألقت بالرجل ومن معه أو بعض منهم إلى الجزيرة الصغيرة محل الحديث.

-فعلا يا «مدحت»، يبدو أيضا أن هذه الجزر لم تكن مأهولة بالسكان في ذاك الوقت.

-بالضبط يا «علاء»، بالإضافة إلى أن المنطقة كلها خطرة من وجهة نظر الملاحة البحرية، لقد درسنا خرائطها في الأكاديمية، على ما أتذكر هناك إعصار يضرب هذه المنطقة، أقصد مثلث جزر «كورسيكا – صقلية – سردينيا»، في نوفمبر أظن اسمه «كليوباترا»، تذكرت الآن أيضا ما كتبه «ابن جبير» عن المسافة بين «سردينيا» و«صقلية» في الاتجاه العكسي لمسار سفينة «كيلوس»، دعوني أقرأ لكم من رحلته وهو يؤكد هذه الحقيقة، لدي هذا الكتاب هنا؛ حملته من «الإنترنت». ها هو.. دعونا نرى.. صقلية.. هذه هي الصفحة المطلوبة.. يقول: «فارقنا بر سردانية.. عصفت علينا ريح هال لها البحر.. وجاء معها مطر تُرسله الرياح بقوة.. عظم الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه.. استشرت الريح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع.. وفي ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية».

عَنّ لـ«غادة» أن تعلق فانبرت قائلة:

-لا بد أن الأعماق حول مجموعة الجزر تلك متخمة بالكنوز، أليس كذلك يا «فريدة»؟

-أجل يا «غادة».

-لنعد إلى الجمجمة إذًا يا «مدحت».

-حسنًا يا «علاء».

أمسك «مدحت» بخريطة للبحر المتوسط، وأخذ يشير بقلمه إلى بعض الطرق البحرية متابعًا كلامه:

-أتخيل أن السفينة التي ركبها «كيلوس» ورفيقاه انطلقت من الإسكندرية غربا في فترة بين الخريف والشتاء فاجتازت الممر البحري بين جزيرتي «مالطا» و«لامبيدوسا».

-«لامبيدوسا» التي ترد في تقارير الهجرة غير الشرعية؟

-نعم، يا زوجتي العزيزة، ثم عبرت بين صقلية وتونس، ثم انحرفت يمينا نحو إيطاليا، حين أصبحت محاذية لجزيرة «أوستيكا»( ) أو «المحروقة».

-المحروقة؟!

-نعم يا «علاء».. سُميت كذلك لسواد صخورها.

-لكن ما كل هذه الجزر؟

-البحر المتوسط يا «غادة» به ما يقرب من مائة وستين جزيرة، المهم حين أصبحت السفينة في حذاء هذه الجزيرة هبت العاصفة المذكورة، أو رياح

شمالية شرقية قادمة من روسيا والبلقان معاكسة للتيار الغالب في البحر المتوسط فطوحت السفينة غربا.

-جميل جدا، طوَّحتها إلى أين يا قبطان؟

-حسنًا يا «فريدة»، سأخبركم، هل تذكرون ما أخبرتكم به الأسبوع الفائت من أن ابنتي تغير ضروسها؟

أجابت «فريدة»:

-أجل.

-ربما لا تعلمون أيضا أن أمي كانت طبيبة أسنان؟

-لكن ما علاقة هذا بالجمجمة يا «مدحت»؟!

-الصبر يا «غادة»، أتذكرين تلك المشاركة التي وصلتك عن أغرب الجماجم؟

-تلك التي سخرتم منها؟

-هل يمكن أن أرى تلك الجمجمة، «ستارشايلد»، على ما أتذكر.

-لا بأس.

أخرجت «غادة» هاتفها، وبعد أقل من نصف دقيقة كانت الصورة على شاشة «الموبايل»، صاح «مدحت»:

-والآن انظروا إلى الجمجمة، الفك السفلي غير موجود.

-هذا أمر عادي، عادة ما تفقد الجماجم الفك السفلي بما فيه من أسنان، ثم ما العلاقة بين ذلك والرقعة؟!

-حسنًا يا «فريدة»، لم ننتبه إلى شيء لافت في الرقعة.

-لا أرى شيئا غير مألوف.

-أرتني أمي ذات مرة أشعة لأسنان أختي الصغيرة، كان لديها صفان من الأسنان في الفك العلوي: الأسنان اللبنية، والأسنان الدائمة، إن صفي الأسنان في الجمجمة التي تصورها الرقعة هما لطفل.

صاح الجميع في نفَس واحد وهم ينظرون إلى الجمجمة ويتأكدون من صحة كلام «مدحت»:

-طفل؟!

-ربما كان ابن «كيلوس»؟

-لا أعتقد يا «علاء»، فرجال الدين في الكنيسة لديهم إشكالية مع الزواج.

-إذًا ماذا ترى يا «مدحت»؟

-أعتقد أن جلد الرقعة الآدمي لا ينتمي لصاحب الجمجمة، لقد كانت

الجمجمة على الجزيرة بالفعل، وأن «كيلوس»، وهذا الأهم، أخفى جواهر «سليمان» في هذه الجمجمة.

عم الصمت وفغر الجميع أفواههم، أكمل «مدحت»:

-ألا تذكرين يا «فريدة» منقار الصقر أو رأس الصقر بالأحرى الذي دلتنا عليه العدسة المكبرة على كعب القارورة؟

-أجل.

-لا بد أن هذه الجزيرة مشهورة بالنسور آكلة الجيف، أو بالصقور.

-ومن ثَم؟

-ومن ثم يا «علاء» يمكننا أن نبحث باسم الجزر واحدة تلو الأخرى؛ لنعرف أيها تشتهر بالصقور أو النسور، أو أي من الجوارح.

-فكرة رائعة.

بالفعل أعطى «مدحت»، «فريدة» قائمة بأسماء الجزر الإحدى عشرة، وأدخلت «فريدة» بدورها الأسماء الواحد تلو الآخر على محرك البحث مقرونا بكلمتي «صقر» و«نسر» باللغة الإنجليزية، انهمكت «غادة» في إعداد الشاي، بينما انشغل «علاء» في تدوين اكتشافات «مدحت» المذهلة.. فجأة

صاحت «فريدة»، فالتف الجميع حولها:

-ألم أقل لكم إن الإنترنت هذا اختراع عظيم؟!

-ماذا وجدت؟

-جزيرة «سان بيترو» San Pietro من مجموعة جزر «سردينيا»، جزيرة بركانية سميت على اسم «بطرس الرسول»؛ لأنه زارها عام ٤٦ ميلادية، أطلق عليها الرومان «جزيرة الصقور»؛ لانتشار نوع من الصقور الصغيرة بها.

صاح الجميع من الفرحة مهنئين أنفسهم ومحيِّين «مدحت»، بطل الأمسية بلا منازع، عانق «علاء» «مدحت»، واحتضنت «فريدة» بنت خالتها.. علق «مدحت»:

-لو أنها الجزيرة المقصودة فعلا فسأرتب رحلة لها، سأتحمل أنا التكلفة بالكامل، نطير على «الإيطالية» أو «مصر للطيران» إلى روما أو نابولي، ثم نأخذ الطيران الداخلي إلى «سردينيا»، وأخيرا قاربا إلى «سان بيترو»، يمكننا استصدار تأشيرات سياحية من القنصلية الإيطالية بمحطة الرمل.

-سنُضطر إلى العودة للقاهرة يا «غادة»؛ لنحضر جوازات سفرنا.

-أجل يا «مدحت».

-لكن يا جماعة..

-ما بكِ يا «فريدة»؟

-يجب أن نتأكد فعلا أنها جزيرة الكنز، علينا أن نستوثق، يقول «جوجل» هنا إن مساحتها واحد وخمسون كيلومترًا مربعًا، هل سنبحث في كل هذه المسافة؟

رد الآخرون بشيء من الحسرة:

-لا طبعا.

-لذا يجب علينا أن نضيق دائرة البحث، مكتوب هنا أيضا أنها تبعد عن «سردينيا» سبعة كيلومترات، وأنها ظلت غير مأهولة بالسكان حتى القرن الثامن عشر.

-ذكرت يا «فريدة» أن هذه الجزيرة سُميت على اسم الحواري «بطرس»، مؤسس المقعد البابوي في روما؟

-نعم يا «علاء».

-إذن لا بد من وجود علاقة بين هذه الجزيرة وكاتدرائية روما أو المقعد الرسولي، ألا توجد أي إشارة إلى وجود كنيسة أو خلافه في الجزيرة؟

-لحظة، دعني أرى، توجد إشارة إلى المنطقة الآهلة منها اسمها «كارلو فورت» ( )، تعتبر عاصمة الجزيرة إذا جاز لنا القول.

-هل الكلمة منشطة؟ بمعنى هل يمكن النقر عليها؟

-أجل يا «علاء»، ها نحن هناك، دعنا نرى، بالفعل توجد كنيسة أثرية تُسمى Ecclesia Novorum Innocentium.

-اسم لاتيني يؤكد ارتباطها بروما.

-أجل يا بنت خالتي، وأعتقد أن الترجمة تعني «كنيسة البراءة الجديدة».

-كنيسة البراءة الجديدة! ماذا يعني ذلك يا «فريدة»؟

-لا أدري يا «مدحت»، لكن لا تغفل أن البابا في روما كان اسمه «إنوسنت الثالث»، أي البريء، ولا يمكن أن نتغاضى كذلك عن حقيقة أن الأطفال هم رمز للبراءة، وأنت ذكرت لتوك أن الجمجمة لطفل لم يغير أسنانه اللبنية، لحظة.. تقول «ويكيبيديا» إن من أمر ببناء هذه الكنيسة هو البابا «جريجوري التاسع»( ) الذي جلس على المقعد الرسولي من ١٢٢٧ إلى ١٢٤١ تخليدا..

-لـ«إنوسنت الثالث»؟

-لا يا «علاء»، بل تخليدا لحملة الأطفال الصليبية.

صاح الحضور في دهشة:

-ماذا؟!

(١٩)

كان البابا «إنوسنت الثالث» الذي جلس على المقعد البابوي عام ١١٩٨ ميلادية يؤمن بما لدى الأطفال من قوة هائلة وإيمان عميق، ذلك بسبب طهارتهم وعفتهم وعدم تلوثهم، أراد «إنوسنت» حين أصبح رئيس كنيسة روما أن يستغل هذه الطاقة في بعث الروح الصليبية واستعادة الممالك اللاتينية في الشرق، وعلى رأسها مملكة «أورشليم»، رافعا شعار «الرب يحب الأطفال».

كان «إنوسنت» قد أرسل الحملة الصليبية الرابعة لهذا الغرض، ففوجئ بفرسان الحملة يحولون مسارها من «أورشليم» إلى القسطنطينية التي نهبوها وخربوها عام ١٢٠٤، التقى «إنوسنت» الكاردينال «أونوروس» في قصر «لاتران» بروما، افتتح الحديث بعد أن رحب به قائلا:

-مجهودك يا «أونوروس» في تعليم «فريدريك الثاني»، ملك صقلية، محل

تقديرنا، هذا الطفل سيجلس يوما ما على عرش الإمبراطورية الرومانية، وأحسبك تعلم أن البابوية هي الشمس والإمبراطورية هي القمر الذي يستمد ضوئه من تعاليم الكنيسة، يجب أن نحافظ على «الإكليريوس» يا «أونوروس».

-نعم قداستك، الحقيقة واجهت صعوبات جمة، فالطفل كان متأثرا بثقافة «السراسنة» التي خلفوها في صقلية، وجدته يتكلم العربية ومغرما بأشعار العرب!

-ماذا؟! حفيد «بارباروسا» العظيم تجري على لسانه أشعار البرابرة؟! لا عجب إذًا أن تجد من يُدرس طب العرب في «ساليرنو».

-ولا عجب إن وصل تأثيرهم إلى هنا.

-إلى هنا؟! ماذا تقصد يا كاردينال؟!

-البابا «سيلفستر الثاني»( ) قداستك، هل نسيت أنه تلقى علوم العرب في «القيروان» و«قرطبة»؟

-أجل.. للأسف، يكفي أنه اتهم بممارسة السحر والشعوذة، هذا أقصى ما يمكن أن تتعلمه من العرب.

-سيتغير كل هذا الآن قداستك.

-واجهنا صعوبات جمة الفترة السابقة: جراح «أيبيريا» والثقافة العربية التي توغلت في أوروبا والمهرطقين «الكاثار»( ) في «تولوز»( ) الذين يزعمون -كغيرهم من الجماعات الدينية- أنهم أكثر طهرا من الآخرين.

-فعلا قداستك، هؤلاء «الكاثار» يلعنهم الرب أينما كانوا لقولهم إن «مريم المجدولية» أهم من «بطرس الرسول»، لقد تجاسروا على القول أيضا إنها تزوجت من «يسوع».

-السراسنة أفضل منهم، ففي عقيدتهم -على زيفها- أن «يسوع» عاش حصورا، على أي حال القس «دومينيك»( ) يبذل مجهودا طيبا في إقناعهم بالكف عن هذه الترهات، أرغب في مضاعفة هذه الجهود قبل أن نضع السيوف على رقابهم حتى نقيم عليهم الحجة.

-سأباشر هذا الأمر بنفسي قداستك.

-فتش في ضمائر العامة وستجد الخرافة، النار يا «أونوروس» هي من تقتل الخبث.

-أجل قداستك.

-اسمع يا «أونوروس»، أنت تعلم أنك من المقربين لي، وأني أعمل جاهدا كي أجلسك بعدي على الكرسي البابوي ( ).

-أنا تحت أمر قداستك.

-بعد أن انتفضت أوروبا وأبعدت عن جسدها هذا الكيان المتطفل المسمى «السراسنة»، أفكر في أن أرسل حملة صليبية جديدة إلى الشرق، أنت رأيت بنفسك العار والشنار اللذين جلبهما علينا أمراء الحملة الرابعة؛ لذا أفكر في أن أخرج على رأس الحملة الجديدة حتى أضمن أنها لن تنحرف عن مسارها.

-لا أتفق معك على الخروج على رأس الحملة قداستك، ولا يمكن أن نضمن سلامتك.

-شرف لي أن أستشهد.

-أنا لا أتحدث عن الاستشهاد، أتحدث عن تآمر الفرسان، تذكر البابا «بندكت السادس».

-مات المسكين خنقا بسبب تكالب الأمراء على السلطة، فهمت قصدك.

-خروج قداستك على رأس الحملة ليس هو الحل، يكفيك أن ترسل موفدا بابويا.

-هؤلاء الأمراء العصاة! إنهم لا يعبئون بأحد، تخيل أنهم وضعوا السيف على رقاب المسيحيين البيزنطيين!

-وخربوا مكتبة «القسطنطينية»!

-ما الفرق بيننا إذًا وبين العرب الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية؟!

-صدقت قداستك.

-هل تعلم أنه تواترت أخبار بأن السلطان سيف الدين غازي..

-ابن «صلاح الدين»؟

-نعم.. أنه رشا قائد الأسطول البندقي «داندولو»( ) ليغير مسار الحملة!

-الغريبة أن هؤلاء الأمراء لم يكترثوا حتى بالحرمان الكنسي الذي أصدرته قداستك.

-لن يظلوا بعيدا عن قبضتي، سيأتون حتما إليَّ يوما ما ليعترفوا بخطاياهم، لقد أقررنا منذ سنوات في المجمع المقدس بضرورة أن يعترف الكاثوليكي على الأقل مرة في السنة، ما أسعى إليه الآن هو أن يعترف الملوك والأمراء وأصحاب الألقاب الرفيعة هنا في روما.

-الطمع يا قداسة البابا أفقد الأمراء الواجب الديني.

-أجل.. ساومنا «البنادقة» لنقل الحملة الصليبية الرابعة على ظهر أسطولهم.

-«البنادقة»! ماذا أقول عنهم؟! إنهم أسوأ من «السراسنة».

-أين هؤلاء من قادة وأفراد الحملة الصليبية الأولى؟ «جودفري»( ) الذي رفض أن يلبس تاجا من الذهب في مدينة لبس فيها المسيح تاجا من الشوك و«بولدوين»( ) الذي ماتت زوجته في الطريق إلى الأراضي المقدسة فواصل مسيرته.

-قرن واحد يُحدث كل هذا التغيير؟!

-نعم، لقد كان البابا «أوربانوس الثاني»( ) أكثر حظا مني؛ لوجود هذه الروح وخروج هؤلاء الأشخاص، حتى الملوك كانوا مختلفين، أين «رتشارد»، قلب الأسد، من أخيه «جون»، هذا الأفاق الذي يجلس على عرش إنجلترا؟! هل تعلم أن والدة «ريتشارد»، الملكة «إيلانورا»( ) كانت مصرة على حمل الصليب والذهاب به إلى «أورشليم»؟!

-حقا؟

-في المقابل هل تعلم أن «البنادقة» لم يتحركوا قبل أن يأخذوا تسعة وأربعين ألف مارك كعربون لنقل الحملة الأخيرة؟!

-هؤلاء تجار قداستك، ولا يستنكفون عن المتاجرة بدم المسيح.

-ليس هم فقط؛ حتى فرسان المعبد فقدوا حماسهم للحرب.

-ذلك لأن قداستك رفعت عنهم الضرائب الكنسية على الرغم من علمك

بأنهم يمتهنون الإقراض بالربا.

-للأسف، هؤلاء هم فرساننا اليوم، حتى القساوسة أصابهم التلف.

-ماذا تقصد قداستك؟!

-هل سمعت عن هذا المخرف «فرنسيس الأسيزي»( )؟

-مؤسس «الفرنسسكان»؟ نعم سمعت عنه.

-ينادي بأن نسعى لتنصير «السراسنة» عوضا عن قتالهم، لقد عرض أيضا أن يذهب لسلطانهم ليقيم عليه الحجة!

-حقا؟!

-نعم يا عزيزي، ألم أقل لك إن العطن يخرج من داخل الثمار؟

-أصبت قداستك.

-وهل سمعت عن «بيتر والدو»( )؟

-الذي ترجم الإنجيل من اللاتينية إلى اللسان العامي الفرنسي؟

-نعم، اسمع يا «أونوروس» إذا قرأ العامة الإنجيل بلغتهم وأصبح لديهم تفسيراتهم فسوف ينقلبون على سلطة الكنيسة وكهنوتها، إذا كان لديهم إنجيلهم فسيكون لديهم في المستقبل كنائسهم وقديسوهم، مع مرور الوقت

سيمتنعون عن دفع العشور، العامة والشعوذة ردفان، يكفيك بعض العظام لتخلق ضريحا، الدهماء لا يفندون ولا يدحضون؛ إنهم يصدقون وحسب، يمكنني أن أجعلهم يصدقون بأن المسيح أتى هنا إلى روما، أو أن العذراء ذهبت إلى الحبشة أو أن المريميات ذهبن إلى فرنسا.

-سمعت بعض المشعوذين يتحدثون خلسة عن هذه النقطة الأخيرة، وأنهن اصطحبن معهن++ فتاة خادمة مصرية اسمها «سارة لا كالي» أو سارة سوداء البشرة.

-أرأيت؟!

-أتفق معك تماما قداستك.

-المهم يا «أونوروس».. أريد أن أعقد مجلسا كنسيا ضخما هنا في «لاتران» أمهد به للحملة الجديدة، أريدك «تور - بواتيه» جديدة، لكن هذه المرة في «أورشليم»، أريد أن يكون لنا موطئ قدم في جزر المتوسط كلها، ونتخذ منها قواعد ونقاط ارتكاز كما فعل «ريتشارد»، قلب الأسد، من قبل في طريقه إلى «أورشليم».

-فكرة رائعة قداستك.

-أريدك أن ترسل القساوسة إلى شتى أرجاء أوروبا يبشرون بحملة صليبية

جديدة ضد «السراسنة» الفوضويين، الوحش الحقيقي الذي ورد في «سفر الرؤيا».

-أفعل قداستك.

-أريدك أن تنتقي منهم من يحتفظ في قلبه بإيمان حقيقي، أريد نوعيات على شاكلة «بطرس الناسك»( ) و«وولتر المفلس»( ) تهتز قلوب العامة لسماع وعظهم، الفقراء والبسطاء هم من يحدثون التغيير، أريدهم أن يركزوا على الأطفال حتى نربي جيلا حاقدا على «السراسنة»، جيلا يُقدر قيم التضحية والفداء والخلاص، جيلا يُشعر الملوك المتقاعسين عن خدمة الصليب بالخزي والعار.

-اعتبر هذا الأمر منتهيا قداستك.

بالفعل بعث «أونوروس» رجال الكنيسة يبشرون بحملة صليبية جديدة، ظهر أحد هؤلاء القساوسة لفتى يُدعى «نيكولاس» في مقاطعة «كولونيا» بألمانيا، الأوهام الدينية التي أخرجت آنفا ولاحقا مدعي النبوة والعشرات ممن يُلقبون بـ«المهدي المنتظر» و«جان دارك» جعلت الصبي يقود حملة صليبية إلى «أورشليم» تأتلف من عشرين ألف طفل، هلك أكثر من نصفهم في جبال الألب، فما كان من أهالي الأطفال إلا أن قبضوا على عائلة «نيكولاس»

فشنقوهم على عروق الأشجار وسحلوا جثثهم في الشوارع.

ظهر قسيس آخر لفتى في العاشرة يرعى الغنم في مدينة «كلوي»( ) بفرنسا على نهر «اللوار». طلب القس من الفتى «ستيفن» كسرة خبز وشربة ماء ثم جلس يحادثه عن «أورشليم»، حين استشعر القس حماس الفتى ورغبته في سماع الحكايات عن فرسان الصليب، طلب منه أن يبشر بحملة صليبية.

اعتقد «ستيفن» أن من ظهر له هو المسيح، انطلق يبشر بالحملة التي استقطبت الأطفال من شتى أرجاء فرنسا حتى وصل عددهم إلى ثلاثين ألفا، جلهم من الأيتام والمشردين وأولاد السفاح والزنا غير الشرعيين، انضم إلى موكب «ستيفن» أيضا بعض البالغين من العوانس واللصوص والعاهرات والحالمين بالثراء، على الرغم من معارضة ملك فرنسا «فيليب أغسطس» للحملة نجحت في الوصول إلى «مارسيليا» في أغسطس من عام ١٢١٢ ميلادية، انتظروا هناك انشقاق البحر، كما أخبرهم بذلك «ستيفن»، مستوحيا ما حدث مع نبي الله «موسى»، لكن شيئا لم يحدث.

عرض اثنان من النخاسين الأوروبيين لبسا ثياب التقوى والعفاف على الأطفال أن يصطحبوهم إلى الشرق دون أجر طلبا لبركات المسيح والعذراء، وافق الأطفال بسلامة نية، في الطريق هبت عاصفة فطوحت بسفينتين من أصل

سبع نحو جزيرة «سان بيترو»، مات كل من فيهما وجرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ. أما الأطفال على متن السفن الخمس الأخرى فقد بيعوا في سوق النخاسة في «بجاية» والإسكندرية والقاهرة وبغداد.

عام ١٢٣٠ ميلادية استطاع أحد هؤلاء الأطفال اسمه «جوزيف»، الآن شاب في الثلاثين، العودة إلى «مارسيليا»، قبل هذه اللحظة اعتقد بعض الأهالي أن الشيطان هو من أرسل أتباعه ليخطف أطفالهم بينما اعتقد آخرون أن رئيس الحشاشين هو من دبر لخطفهم، تبنى هذا الرأي القس «فينسنت بوفيه»( ) ودلل على ذلك بأن الحشاشين تخفوا من قبل في زي رهبان مسيحيين واغتالوا ملك «أورشليم»، «كونراد دي مونتفورت»( ).

كان لدى الشاب العائد من الجسارة لأن يقر أنه ما خرج عام ١٢١٢ طلبا لـ«أورشليم»، بل ليتلقى علم الأعشاب على يد العرب بعد أن أصابت أفراد أسرته حكة تعذر عليهم علاجها حتى تقيحت أجسامهم. قال إنه بيع مع آخرين للعمل في مزرعة حاكم الثغر ثم استطاع أن يلتحق بخدمة «أبي العباس النباتي»( ) الذي قدم الإسكندرية من «إشبيلية» عام ١٢١٦ ميلادية، تعلم منه الكثير، وانتقل معه إلى القاهرة في خدمة السلطان «العادل» عام ١٢١٨م.

قال «جوزيف» إنه التحق بعد ذلك بخدمة الملك «الكامل»، وعمل في دواوينه وكمترجمه الخاص بالإضافة إلى العقاقير، اصطحبه الملك معه أثناء حصار المنصورة الثاني الذي انتهى بمصالحة «الكامل» و«فريدريك الثاني» عام ١٢٢٩م، بعد الصلح أطلق «الكامل» سراح «جوزيف» مكافأة له على إخلاصه وخدمته، أخيرا أوضح «جوزيف» أن «الكامل» كان يعامله بكل ود واحترام، وأنه لم يطلب منه تغيير ملته.

والآن ظهرت حقيقة ما حدث لحملة الأطفال بعد أن سرد العائد القصة، بطبيعة الحال مال كل من فقد ابنا أو ابنة إلى الاعتقاد بأن فلذة كبده كان على السفن الخمس الناجية، وشعر بالراحة النسبية؛ لأنه على قيد الحياة، وأنه يلقى نفس المعاملة التي حظي بها «جوزيف»، مما هون عليهم أيضا علمهم بأن النخاسَين «وليم» و«هوجو»( ) قد أعدما على جذوع الأشجار في «صقلية»؛ لأنهما تورطا في التآمر ضد ملكها «فريدريك الثاني».

حين وصل خبر العائد إلى البابا «جريجوري التاسع» في روما استدعى قتل الأطفال العبرانيين على يد فرعون وقتل أطفال «بيت لحم» على يد «هيرودوس»، ثم أمر ببناء كنيسة «البراءة» Chisa dei Novelli Innocenti في الجزيرة التي باركها بطرس الرسول بالمشي عليها، شُيدت هذه الكنيسة الصغيرة تكريما لغرقى السفينتين من الأطفال وكذلك للبابا «إنوسنت» الذي

ضحى بهم كالخراف للأسف الشديد.

حين نزل البناءون الجزيرة وجدوا حفرة في الأرض بها جماجم وعظام الأطفال وفوقها صليب خشبي، كان «كيلوس» هو من صنع الحفرة، وضع «كيلوس» الجمجمة التي تحتوي على الكنز في القاع، ثم أهال عليها التراب، رص ما استطاع أو ما وجد من الجماجم الأخرى في طبقة ثانية، تأكد من ملء الجماجم بالرمال قبل وضعها حتى لا تهبط الأرض، لا ريب أن «كيلوس» لم يعرف أن هذه الجماجم لأطفال، وربما أيضا لم يندهش لوجودها، فالبحر يُلقي بحطام السفن على شاطئ الجزيرة تماما، كما حدث معه هو ورفاقه. المهم ترك البناءون الحفرة كما هي، وشيدوا فوقها المذبح الخاص بالكنيسة ووجهوه إلى الشرق، تم البناء في فترة ما بين ١٢٣١ و١٢٤١م.

في عام ١٧٣٧م تمكن مجموعة تعود أصولهم إلى «جنوة» كانوا أسرى في تونس من الفرار، استوطنوا جزيرة «سان بيترو» وامتهنوا الصيد بها، حين نزلوا الجزيرة لأول مرة تحت قيادة شخص اسمه «تاجليافيكو»( ) تعجبوا من وجود هذه الكنيسة الصغيرة في جنوب الجزيرة، لكنهم أبقوا عليها وأضافوا إليها.

(٢٠)

اكتمل الجدول الذي أعده «علاء» إذًا وعدلته «فيبي»، انتقلت كنوز مائدة «سليمان» من الإسكندرية في عام ١٢١٥ ميلادية لتستقر في كنيسة «الأبرياء الجدد» حتى تاريخه، يا لها من رحلة طويلة!

المدينة/ الحائزون من إلى المدة بالأعوام ملحوظة

أورشليم ٩٥٠ ق. م ٧٠م ١٠٢٠ هيكل سليمان - تخريب تيطس

روما ٧٠م ٤١٠م ٣٤٠

القوط انتهاء بالعاصمة الأخيرة طليطلة ٤١٠م ٧١١م ٣٠١

المسلمون في الأندلس ٧١١م ٧١٥م ٤

دمشق ٧١٥م سنة توفي الوليد بن عبد الملك في ٢٣ فبراير

مكة

الحبشة ٧١٦م ١٢٠٩ ٤٩٣

الإسكندرية ١٢١٠ ١٢١٥م ٦

سان بيترو ١٢١٥م ٢٠١٣ ٧٩٨

عمر الكنز ٩٥٠ ق. م ٢٠١٣ ٢٩٦٣

بعد أن تأكد المغامرون الأربعة أنهم وصلوا إلى النقطة النهائية في سعيهم نحو اكتشاف كنز مائدة «سليمان» شرعوا في التخطيط لآخر مرحلة من البحث، قالت «غادة»:

-قطع الكنز رحلة تقترب مسافتها من الخمسة عشر ألف كيلومتر في حوالي ثلاثة آلاف عام تقريبا، أي أنه قطع خمسة آلاف كيلومتر في الألفية الواحدة، انتقل غير مرة في خطوط التماس بين اليهود والمسيحيين والمسلمين وكأنه كنز عالمي!

-فعلا يا زوجتي الحبيبة، هو كذلك حقا.

-لكن لدي بضعة أسئلة يا «علاء».

-انتهى وقت الأسئلة يا «غادة»، وحان وقت العمل.

-أرجوك حتى أطمئن لما نحن مقبلون عليه.

-هات ما عندك.

-ذكرت أن عمليات نهب كثيرة جرت في كنيسة إثيوبيا قبل «كيلوس»، فلماذا بقي كنز «سليمان»؟

-لأنه ظل في مأمن لفترة طويلة، أو لنقُل إن الظروف لم تتهيأ لسرقته إلا في زمن «كيلوس».

-لماذا لا نفترض أن الكنز سقط في البحر أثناء العاصفة التي ضربت السفينة؟

-أولا: لأن «كيلوس» خط الرقعة الجلدية. ثانيا: في ظني أن «كيلوس» خاط جيبا في ثيابه وضع الكنز فيه ثم أغلقه بإحكام، لا بد أنه تحسب لهجوم بعض القراصنة أو اللصوص أو خلافه.

-حسنًا، وهل كان «كيلوس» على علم بأن الكنز الذي يحمله هو كنز مائدة «سليمان»؟

-أجل ومن دون شك، لقد كان رجلًا مثقفا، ولا بد أنه كان على اطلاع بما كُتب

عن المائدة وبالمراحل التي مرت بها.

-ولماذا لم يمثل الكنز في الرقعة الجلدية كفصوص في جمجمة الطفل مثلا؟

-لأنه ببساطة أراد أن يقول للأجيال القادمة إن الكنز يخص مائدة «سليمان» التي عوض عنها برمز العقدة، وهو رمز مشترك يشير من ناحية إلى النبي «سليمان» ومن ناحية أخرى إلى فكرة العقدة والحل، هل أنت مطمئنة الآن يا زوجتي الغالية.

-أجل.

-وأنت يا «فريدة» أحس أن لديك ما تريدين قوله، هات ما عندك.

-نعم، لماذا تعتقد أن الجمجمة التي تحوي الكنز في الكنيسة؟

-ستفاجئين إذا قلت لك إنها ليست في الكنيسة وحسب، بل في مذبحها.

علق «مدحت»:

-المذبح!

-نعم يا «مدحت»، المذبح في الهيكل اليهودي أو الكنيسة يضارع قدس الأقداس في معابد الفراعنة، وقبلة المسجد ومنبره عند المسلمين، كنيسة «البراءة» هي أقدم مكان في «سان بيترو»، ومن ثم يصير مذبحها الذي هو

أقدس مكان فيها أهم نقطة في الجزيرة.

-صحيح.

-فعلا.

-تماما.

هكذا علق المتشككون، قال «علاء» موجها كلامه إلى «غادة»:

-إلى إيطاليا إذًا.

-نعم، إلى إيطاليا.

في مساء اليوم نفسه سافر «علاء» إلى القاهرة ليُحضر جوازات السفر، في الصباح وفور عودة «علاء» انطلق الأربعة إلى الإسكندرية، أحضر «مدحت» و«فريدة» جوازي سفرهما من منزلهما، وبعدها بساعة كان الجميع في القنصلية الإيطالية بمحطة الرمل.

قدموا طلب الحصول على تأشيرة سياحية، استفسروا من أحد الإيطاليين هناك عن جزيرة «سان بيترو»، فأمدهم بكتيب عن جزر «سردينيا»، تصفحت ««فريدة»» الكتيب في طريق العودة، وجدت إشارة إلى كنيسة «البراءة» في الجزء الخاص بجزيرة «سان بيترو»، تبين أن الكنيسة لا تُفتح ولا يعقد بها

قداس؛ نظرا لصغر حجمها ووجود كنائس أخرى باستثناء في مناسبات محددة، مثل: يوم القديس «بطرس» في شهر يونيو، وعيد الفصح، و«الكريسماس»، وأشياء من هذا القبيل.

سأل «مدحت»:

-نستطيع أن نعاينها إذًا في عيد الفصح؟

ردت «فريدة»:

-لا طبعا؛ لأن عيد الفصح كان ٣١ مارس وفقا للتقويم الكاثوليكي لعام ٢٠١٣، يعني أنه قد انتهى.

علقت «غادة»:

-نقتحمها إذًا، أستطيع أن أساعد كثيرا في هذا الأمر، أستطيع تسلق الأسوار، الجمباز مفيد في هذا الشأن.

-لكن كيف نقتحمها دون أن نعاينها يا زوجتي العزيزة؟

عقب «مدحت»:

-كنت أفضل أن يكون الكنز في مكان عام عوضا عن كونه أسفل مذبح كنيسة أثرية صغيرة.

علقت «فريدة»:

-الحقيقة يا جماعة، علينا أن نسأل أنفسنا سؤالا مهما: هل نحن مستعدون فعلا لمغامرة من هذا النوع؟ وبعبارة أخرى هل نحن جاهزون فعلا لاقتحام مبنى في بلد أجنبي، خاصة في ظل هذا التوتر الذي يشهده العالم؟ وماذا إذا كان المبنى مزودا بنظام إنذار؟ وماذا إذا قُبض علينا؟ وهل لدينا القدرة والجرأة على القيام بذلك فعلا؟

ردت «غادة»:

-ماذا كنتم تنتظرون؟ بذلنا مجهودا ضخما في فك طلاسم الكنز، والآن بعد أن عرفنا مكانه نقع في براثن التردد، نحن أجبن من أن نقوم بمغامرة، مغامراتنا على الورق فقط.

علق «علاء»:

-لن يفيد هذا الكلام الآن يا «غادة»، استمتعنا بهذه المغامرة، حتى ولو كانت كما تقولين على الورق.

عقب «مدحت»:

-اسمعوا يا أصدقائي، أنا أتفهم مخاوف «فريدة» وأراها مشروعة، أرى أن نسافر إلى «سان بيترو» ونتصل بالسلطات المسئولة عن الجزيرة، ونشرح

لهم كل شيء منذ البداية، ونطلب منهم المساعدة مع التأكيد على حقنا في الكنز حسب النسبة المقررة.

-١٠٪ كما في مصر؟

-لا أدري يا «غادة»، أيا كانت، دعونا نأخذ الأصوات بين الاقتحام والعمل من خلال القنوات الشرعية، أنا أوافق على العمل من خلال السلطات، وأنت يا «فريدة»؟

-وأنا مثلك.

-«علاء»؟

-أعتقد أنني قد أصل إلى اتفاق مع الإيطاليين على ترجمة روايتي إلى لغتهم، ومن ثم أنضم لكما.

-وأنت يا «غادة»؟

-حسنا يا «علاء» سألتزم بقرار الأغلبية.

-جميل جدا.

في الطائرة المتجهة صوب «نابولي» نظر «علاء» من النافذة إلى أهم بحار العالم، بحر الأساطير، بحر «أوديسيوس» و«أفروديت»، اجتهد ليخرج دفتره

وقلمه دون أن يُزعج «غادة» النائمة على كتفه، جال ببصره وقدح زناد فكره، نظر إلى البحر ثم انطلق قلمه يلتهم السطور وكأن البحر هو من يُلقنه.

في المقعد الذي خلفهما كان «مدحت» يحكي لـ«فريدة» عن رحلته لجزيرة «نيلسون» في «أبو قير» منذ سنتين، وكيف أنه اصطاد من هناك سمكة «وقار» كبيرة الحجم، ظلت «فريدة» تسمعه بكل جوارحها وأحاسيسها، كانت مستمتعة عن جد بكل لحظة تقضيها معه.

استيقظت «غادة» لتجد زوجها منهمكا في روايته، تلصصت على ما كتب قائلة:

-أراك غيرت افتتاحية الرواية؟!

-لا، فقط أضفت لها تلك الكلمات، هل تريدين قراءتها؟

-بل اقرأها لي، أحب سماع صوتك.

-حسنًا «تراجعت شمس الربيع باهتة خلف سحب احتبست الدموع في مآقيها، انتشرت رائحة اليود وانكسرت الأمواج على شواطئ تتمدد وتنكمش بفعل السنين، كان صوت الرعد مخيفا وراح البرق يشرخ لوح الأفق البعيد كاشفا هنا وهناك عن عدد من السفن العاثرة التي تنتظر دخول الميناء. لم يغلق البوغاز وحسب، بل كل نافذة وباب وشرفة في الإسكندرية، اقتلعت

الرياح أعمدة الكهرباء التي تآكلت قواعدها واللافتات البائسة والأشجار المحنطة، وعربدت المياه في كل مكان بعد أن فشلت البالوعات المتهالكة في استيعابها، راحت أمواج البحر تُفرغ ما في أحشائها من الأعشاب والرمال السوداء وكسر المحار وحدف المراكب على الصخور البائسة، مالت الشمس بأحزانها السرمدية نحو المتوسط كما تفعل كل يوم، واصطخبت النوارس وهي تغطس للمرة الأخيرة قبل أن تؤوب لأفراخها ممتلئة البطون، أيها البحر المحبوس في قمقم الأساطير، أيها البحر الذي بلع أحلام الملوك وذهب القراصنة وأمنيات العاشقين، أيها البحر الذي تهواه الشطآن وتعلم أن نهايتها على يديه، أيها المسحور والمحسور، كم من القلوع حطمت؟! كم من المرافئ عطلت؟! كم من الأشخاص خطفت؟!».

-لِم توقفت؟! أكمل، كلامك جميل، أوصافك رائعة.

-وقفت هنا.

-المشهد القادم «مدحت» والقارورة، القارورة التي قذفها البحر، أليس كذلك؟

-مفترض.

-هل تشعر حقا يا «علاء» أننا سنجد الكنز؟

-لا أدري، لكن لم لا؟

بعد أسبوعين من حديث السيارة كان الأصدقاء الأربعة في «كاجلياري»( ) يشرحون للمسئولين عن الآثار والفنون الجميلة قصة الرقعة الجلدية، أوضح لهم المختصون هناك أن الكنيسة قد أدرجت كتراث وطني منذ فترة، وعدوهم أنهم سيردون عليهم في أقرب فرصة.

أمضى أصدقاؤنا الأربعة أوقاتا لطيفة في جزيرة «سان بيترو»، ارتادوا الكهوف البحرية والتقطوا الصور بجوار فنار الجزيرة وكنيسة «البراءة» وعمودي «كارلو فورت» اللذين يشبهان تمثالي «ممنون» في البر الغربي للأقصر، استمتعوا بإقامتهم في الفندق الذي يشرف على الميناء وبأطعمة البحر المتوسط التي تقدمها المطاعم هناك، خاصة التونة بزيت الزيتون والفطر والفلفل الأخضر والشوفان.

في سينما المدينة الصغيرة استمتعوا بفيلم إيطالي مصحوبا بترجمة إنجليزية حول شاب فعل المستحيل كي يخبر مذيعة مشهورة أنه يحبها، عمل سائقا لديها على الرغم من أنه يستعد لمناقشة درجة الماجستير، عمل مراسلا تلفزيونيا في القناة التي تظهر فيها حتى يبقى قريبا منها بعد أن صدته آنفا، في يوم من الأيام كان يتجهز للبث من بلد بعيد، بسبب فارق الصوت لم يدرك أنه على الهواء فصاح في «المايك»: «أحبك يا كلويديا.. أحبك»، لفت «الكنترول» نظره إلى أنه على الهواء، لكن العالم كله كان قد سمع صوته.

أحست «كلوديا» بالخجل، لكنها شعرت بالزهو لأن هناك من يحبها كل هذا الحب، انتهى الفيلم نهاية سعيدة وأعطى أصدقاءنا شحنة «رومانسية» قوية.

ما أجمل العشق! ما ألذه حين يجمع شمل المحبين! ما أنبل الحب، تلك النبتة التي تنمو في القلوب بين لحم ودم، تلك المعزوفة التي تأخذنا للسحاب وثلوج الجبال، تلك الحالة من الخدر التي تدغدغ أعصابنا وتدلل أحاسيسنا.

توطدت العلاقة بين «علاء» و«غادة» بشكل غير مسبوق، شعرا أنهما لم يعرف بعضهما بعضا بشكل جيد من قبل، أصبحا أكثر اتساقا مع نفسيهما وأكثر التصاقا بهذه العلاقة المقدسة التي جمعت بينهما، احتفلا بعيد زواجهما في الجزيرة بصحبة «فريدة» و«مدحت»، ورقصا حتى خيوط الصباح الأولى.

أما «مدحت» و«فريدة» فقد مرا بلحظة المكاشفة التي ظلا يؤجلانها منذ الأول من أبريل، لم يتحدثا، لكن أصابعهما كفتهما الكلام، في اليوم الأول لمسات بالسبابتين ثم تشبيك اليدين، في اليوم الثاني نظرات طويلة ثم حاول «مدحت» أن يطبع قبلة على شفاه مغلقة أبت أن تُخرِج شهد براعمها إلا بحقها وفي أوانها. صدق العرب حين قالوا: «المرأة العفيفة كنز».

من قال إن مسيرة إنسان يمكن أن تنتهي بخطبة فاشلة أو زواج تعيس؟! من قال إن تجاربنا العاطفية الفاشلة تقتلنا؟! من قال إن اليأس الأسود يمكنه

أن يزيح الأمل الذي تضخه الحياة في عروقنا صباح كل يوم؟! إذا كانت العظام تُجبر وتلتئم فإننا أيضا قادرون على أن نبرأ من جراحنا وآلامنا، صحيح أن الوقوع والسقوط يمثلان لنا صدمة نفسية أكبر بكثير من قدرة الجسد على التعافي، لكن إرادة الاستمرار تدفعنا للوقوف كالغزال الوليد ثم نخطو لنكتسب الاتزان ونصل إلى بر الأمان.

(٢١)

دق هاتف الفندق ليحمل أخبارا سعيدة للمصريين الأربعة، انتدبت لجنة الآثار بـ«كاجلياري» قس الكنيسة ومسئولا من الحكم المحلي للقيام بما يلزم، التقى الأربعة مع عضوي اللجنة في أحد مقاهي بلدة «كارلو فورت» وسط سلال جميلة من الورود والفاكهة والخبز الطازج بالشمر، بدأ راعي الكنيسة حديثه قائلا:

-أعذروني لا أتحدث الإنجليزية بشكل متقن، لكني سأبذل قصارى جهدي لأوصل لكم رسالتي، أولا نحن نرحب بكم هنا، العلاقة بين مصر وإيطاليا، وتحديدا بين الإسكندرية والجزر الإيطالية لا تحتاج إلى شهادتي.

رد «مدحت»:

-شكرا لك.

واصل القس:

-حين وطئ الجنويون الجزيرة عام ١٧٣٧ ميلادية وحصلوا على إذن من ملك «سردينيا»، «تشارلز عمانويل الثالث» بالاستقرار فيها، قرر كبيرهم «أجستينو تاجليافيكو» ترميم الكنيسة التي أثارت دهشتهم، تم ذلك عام ١٧٤٢ ميلادية، في عام ١٧٩٦ أهداها هذا الجرس الجميل الذي يقبع في البرج. عام ١٨٨٤ استُخدمت الكنيسة كمأوى من مرض الطاعون الذي ضرب المنطقة. في مايو من عام ١٩٢٨ قامت السيدة «ليمبانيا بيجبين»( ) بتبليط الأرضية وترخيم السلالم، خضعت الكنيسة لترميم آخر عام ١٩٨٦ ميلادية. انظروا.. ها هي صورة الكنيسة عام ١٨٦٧ بقلم فنان إنجليزي يُدعى «نيوتن بيركنز»( ).

ناول القس الصورة للمصريين متابعا:

-وهذه صورة أخرى للكنيسة عام ١٩٤٠م.

-وهذا هو شكلها الآن كما ترون.

قالها وهو يشير إلى الكنيسة الحالية، نظر الجميع باتجاه أصابعه، ليس بعمارتها شيء مميز، لكن عبق التاريخ يخرج من مسام لبناتها، لدهشتهم علم أصدقاؤنا من القس أن الكنيسة ليس بها نظام إنذار؛ لأن المنطقة آمنة للغاية، فضلا عن أنها لا تحتوي على أشياء ذات قيمة عالية، أردف القس:

-ربما تغير ذلك لو وجدنا الكنز الذي لم نسمع عنه من قبل.

قاطع «علاء»:

-عودة إلى الترميمات.. السؤال هنا سماحتك: هل شملت كل هذه الأعمال مذبح الكنيسة أم اكتفت بالتوسعة والشكل الخارجي.

-لا أعلم، لدي تقرير قديم من السيد «تاجليافيكو» في منتصف القرن الثامن عشر يقول إنه قلب الكنيسة رأسا على عقب.

عقبت «فريدة»:

-العبارة «رأسا على عقب» نيافتك قد لا تخرج عن كونها تعبيرا اصطلاحيا يشير إلى عملية تجديد شامل.

-جائز جدا.

تدخلت «غادة»:

-لكن ما إحساسك أنت أيها القس؟

-لا أدري، راجعت المصادر الغربية التي تتحدث عن المائدة، ربما فاتكم أن تفعلوا ذلك، بادئ ذي بدء، مؤرخ القرن الأول الميلادي «يوسيفوس فلافيوس»( ) لم يذكر المائدة على الإطلاق حين أرخ لتراث اليهود، وإذا افترضنا جدلا

أنها كانت موجودة وأن «تيطس» حملها إلى روما فإن قوس النصر الذي أقيم في العاصمة الإيطالية تخليدا لانتصارات «تيطس» وتخريبه الهيكل ضم منحوتات لغنائم الرومان منها الأسرجة والشمعدان السباعي والأبواق الفضية وطاولة «خبز الوجوه»..

-خبز الوجوه؟!

-نعم يا «سنيورة فريدة»، الخبز المقدس، اثنتا عشرة فطيرة بعدد أسباط بني إسرائيل كانت تُصنع كل سبت وتُرص صفين على مائدة من خشب اللبخ، سُمي «خبز الوجوه»؛ لأنه كان دائما أمام الرب، قال البعض إن العدد ربما يُشير لشهور السنة، والمقصود أن الرب يضمن طعام بني إسرائيل طيلة العام.

-امممم.

-كنت أقول إن قوس «تيطس» صور غنائم كثيرة ليس بينها مائدة سليمان، ثم فرضا أن المائدة وصلت لروما هناك أيضا من يعتقد أنها لم تغادرها، بل يذهب البعض إلى أن مائدة «تيطس» لا تخص الملك سليمان من الأساس، المعروف أن «القوط» الغربيين هم من قوضوا الإمبراطورية الرومانية واستولوا على كنوزها، ومنها المائدة كما تقولون، لكني وجدت إشارة إلى أن الذين حازوا المائدة هم قبائل «جرمانية» أيضا تُعرف بـ«الفاندال» أو «الوندال»،

هذه القبائل نهبت مدينة روما عام ٤٥٥ للميلاد، لقد كان تخريب ٤٥٥ أشد وطأة من سابقه عام ٤١٠، اللفظة الإنجليزية «فاندالزم» Vandalism بمعنى النهب والتخريب القاسي الذي لا يُبقي على شيء تعود إلى هذه القبائل التي كان لها وجود في شمال أفريقيا، وأيضًا في إسبانيا؛ حيث دارت بينهم وبين «القوط» معارك، لكن ملكهم لم يدم كثيرًا.

-من غير المنطقي يا حضرة القس أن ينهب «القوط» روما عام ٤١٠ ميلادية ثم يتركوا هذه الكنوز على حالها؛ ليعود «الفاندال» لنهبها بعد خمس وأربعين سنة، أنت قلت بنفسك إن تخريب عام ٤٥٥ كان أشد وطأة؛ لأنه عام ٤١٠ أخذ المغيرون الكنوز المكدسة، أما عام ٤٥٥ لم يجد الغزاة مفرًّا من خلع النفائس من الحوائط والأبواب فهذا هو ما تبقى لهم، ثم حتى لو افترضنا أن «الفاندال» هم من حازوا المائدة، ربما انتزعها منهم «القوط» خلال الحروب التي نشبت بينهما. وخلاصة القول إن المائدة وصلت إلى «توليدو»، كل الطرق أيها القس فيما يبدو تقود إلى حاضرة «القوط» الأخيرة «طليطلة».

-سيد «علاء».. هناك كاتبة اسمها «مارجريت دينيسليي» تُسمي هذا الكنز في كتابها «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى المتقدمة»( ).

-العصور المظلمة؟

-نعم ما يدعوه البعض «العصور المظلمة»، تسميه الكاتبة «كنز القوط»، تعترف أنه من أسلاب ٤١٠، وأنه كان وعاء أو منضدة من الذهب مطعمة بالجوهر وتزن ٥٠٠ رطل.

-جميل.

-فعلا يا آنستي، لكن المؤرخة أضافت أنه صناعة رومانية، وهذا يبرر عدم وجود المائدة على قوس «تيطس».

-أراك بذلت جهدًا كبيرًا في البحث أيها القس المبجل.

-أحتذي حذوكم يا قبطان.

-ربما ارتكبت السيدة «مارجريت» خطأ.

-ربما يا «مدام» «غادة»، ومع ذلك هل يمكن أن يحتفظ «القوط» الغربيين بالمائدة ويحملوها معهم في فترة تنقلاتهم بين الأقاليم وحتى استقرارهم في «توليدو»؟!

-لِم لا؟!

-وارد يا «سنيور علاء»، لكن هناك من يقول بأن «آلريك» وزع الكنز على مناطق مختلفة، وأن جزءًا منه نُقل إلى «قرقشونة»( ) في فرنسا. يقول

«إدوارد جيبون»، صاحب كتاب «انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» وهو كتاب غني عن التعريف: إنه حين مات «آلريك» العظيم حوَّل الخاصة من أتباعه مسار نهر «بازينتو»( ) وهو نهر صغير في جنوب إيطاليا، ثم قاموا بدفنه في القاع ومعه الغنائم والكنوز، ثم أعادوا النهر لمساره الطبيعي وقتلوا الأرقاء الذين قاموا بعملية الحفر والدفن حتى يبقى السر على مر العصور.

-مراسم دفن ملحمية!

-أجل يا قبطان، من الجائز أن تكون المائدة ضمن هذه الكنوز التي دفنت معه باعتبار أنها غنيمة، يُقال أيضا إن الملك «ثيودوريك»( ) الذي وحد مملكتي «القوط» الشرقيين والغربيين في أوائل القرن السادس الميلادي نقل شقًّا كبيرًا من الكنوز محل الحديث إلى «رافينا»( ).

-رافينا!

-هنا في إيطاليا يا آنسة «فريدة».

-وأخيرا إذا سلمنا بأن المائدة وصلت إلى «أيبيريا» فهناك طائفة من الباحثين الإسبان يعتقدون أن المائدة لم تخرج من بلادهم، يقولون أيضا إن النقش الذي على سطحها يسمى «شيم شيمافوراش»( ).

-وماذا يعني ذلك؟!

-يعني يا «سنيورة فريدة»، «اسم الرب ومفاتيح المعرفة وصيغة خلق الكون»، أحضرت لكم هذه صورة متخيلة له.

أخذ الأصدقاء الأربعة يفحصون الصورة لبعض الوقت، قبل أن ينطلق «علاء» موجهًا حديثه للقس:

-ما كل هذا التشكيك أيها القس؟! الثابت أن المائدة وصلت إلى إسبانيا.

-ربما يا بني، لكن هل خرجت منها؟ هذا هو السؤال.

-من قراءتي وعلى حد علمي أن الكاردينال «سيليسيو»( ) وجه مجموعة لارتياد كهف «هركليز» عام ١٥٤٦، ولم يجدوا سوى بضعة تماثيل من البرونز.

-أصحاب هذا الرأي يا بني يعتقدون أنها مدفونة في جبل «زوليما»( ) وأن «ميجيل سيرفانتس»( ) أشار إلى هذا الجبل في رائعته «دونكيشوت» ( ).

-هل يعني ذلك يا سيدي أنك تميل لأطروحة أصدقائك الكاثوليك في إسبانيا وترفض الرواية العربية؟!

-أبـدًا، مقدار تصديقي للقصتين متساوٍ، الحقيقة فوق الأعـراق والنحل والأيديولوجيات، لكن المشكلة أننا نحن البشر لا نتفق كثيرًا، حتى الملك سليمان، صاحب المائدة، نختلف فيه نحن مع المسلمين، أنتم تقولون إنه كان نبيًّا وإنه أوتي ملكا عظيما وإنه سخر الجن لخدمته، أما نحن فنرى أنه

كان ملكا يهوديا أصاب وأخطأ، ونذكره بنشيد الإنشاد وما له من تأويلات مسيحية.

-لكن..

-الجمل الاعتراضية لن نفيد كثيرًا في موقفنا، قصتكم عن المائدة تنقسم إلى ثلاثة فصول:

-قصتنا! تقصد أنها لا ترتقي للحقيقة؟!

-انتظر يا «سنيور» حتى أنتهي، الفصل الأول من «أورشليم» وحتى «توليدو» له ذكر بسيط في بعض المصادر الغربية، الفصل الثاني..

-لا أحب كلمة «الفصل» تلك، أشعر وكأننا نتحدث عن مسرحية.

-حسن يا سنيور «علاء»، أنا أقدر مشاعرك، لنقل الجزء الثاني، هذا الجزء يمتد من إسبانيا إلى مكة، والعهدة فيه على المؤرخين المسلمين، أما الجزء الثالث، وأعني به من مكة إلى جزيرتنا فهو من صميم عملكم.

-تقصد أنه مختلق؟! ألم ترَ الخريطة؟!

-بلى يا سنيورة «غادة»، أجد صعوبة في تمرير فكرتي، أنتم الشرقيون..

-ماذا؟!

-أقول لكم يا أبنائي.. الله وحده يمتلك الحقيقة الكاملة.

(٢٢)

ساد صمت بطعم الريبة والتشكك، صمت يجعلك تسمع شهيقك وزفيرك وحسب، سارع «علاء» بكسره قائلًا موجهًا كلامه للقس:

-سيدي القس، لا يمكن أن تتعامل مع مسألة الرقعة الجلدية بنظرية «توما المرتاب»؛ لأننا لا نحدث هنا عن قضية من قضايا الإيمان.

-ما أوسع ثقافتك أيها الشاب المهذب، تعرف حتى «توما الشكاك».

-كما لا يمكن في حالتنا تلك أن نختبر الأمر بالشك الديكارتي؛ نفرغ سلة التفاح لنبحث عن التفاحة التالفة، الجماجم موجودة في الحفرة، واحدة منها تحوي الكنز، كيف يمكن الوصول إليها؟!

أخذ «مدحت» بطرف الحديث من «علاء» قائلًا:

-فقط ساعدنا لكي نكشف النقاب عن حقيقة الكنز.

-ومن قال لك يا «سنيور مدحت» إني لن أفعل، أردت فقط أن أشارككم متعة البحث، بالمناسبة قد لا تعلمون أني حاصل على درجة الماجستير في التاريخ الكنسي، كانت أطروحتي عن «آريوس» السكندري، هل تعلمين أن «القوط» كانوا «آريوسيين» قبل تحولهم للكاثوليكية؟

-حقا؟!

-أجل يا بنيتي.

-وبعد أيها القس؟!

-كل خير يا «مدام»، أنا صاحب مصلحة مثلكم تمامًا في ظهور الكنز هنا في الكنيسة الصغيرة العزيزة، لطالما مكثت بالساعات في هذه الكنيسة بمفردي أنظر إلى التصوير الجصي الذي يحكي قصة الأطفال، لطالما شعرت أنهم معي في الكنيسة يمرحون ويلهون، لا أستطيع إنكار انبهاري بالقارورة، أجرينا عدة اختبارات عليها فتأكدنا من تاريخها وتشكيلها من مكونات التربة الخاصة بجزيرتنا، لم نحقق نجاحًا ملحوظًا في تحليل الشريط الوراثي للرقعة الجلدية، كان لدينا أمل في مقارنتها بعينات محفوظة سلفًا من شمال شرقي أفريقيا، لكن عينات البقايا العظمية التي أخذت من الساحل أكدت وجود علاقة بينها وبين سكان حوض نهر «اللوار» في فرنسا من جهة، وشمال أفريقيا

من جهة أخرى، رصد الغطاسون أيضًا حطام سفن كثيرة بالقرب من الشاطئ.

-وهل وجدوا عليها شيئًا؟

-أجل يا سيد «علاء»، عملات رومانية وبقايا فينيقية و«جريكية» و«قرطاجية» وفخارا «موريسكيا».

-«موريسكي»؟!

-من شمال أفريقيا يا سيدة «غادة».

-امممم.

-على أي حال لا أستطيع إخفاء إعجابي بالأسلوب العلمي المثير الذي فسرتم به الخريطة، تبدو منطقية إلى حد بعيد، لكن..

صاح الجميع في نفَس واحد:

-لكن ماذا من جديد؟

نظر القس إلى عيونهم المتعبة المتلهفة قائلًا:

-لا أستطيع أن أسمح بالتنقيب أسفل المذبح؛ لأن هذا سيعني تدميرًا فادحًا له، في بعض الأحيان يكون الخير أن تظل الكنوز داخل الأرض لا خارجها، لقد سمعتكم تتحدثون عن شؤم هذا الكنز، ألا تخشون إن أمطتم اللثام عنه

تصيبكم لعنته؟ يا أبنائي.. إن الكنوز التي في باطن الثرى يتجاوز عددها تلك التي بين أيدينا، من يدري ربما لو خرجت هذه الكنوز إلى النور لأثارت الأطماع وأججت الشرور وأشعلت الحروب؟

عقبت «غادة»:

-لكنها كنوز النبي «سليمان»؟

-حسنًا دعيني أسالك سؤالًا: هل تم العثور على أي شيء له علاقة بالملك «سليمان»؟! الناس تتعامل مع هذا الأمر من منظور «الليالي العربية» أو «ألف ليلة وليلة».

-ماذا يعني ذلك؟

-يعني يا سيدتي أن الخرافة هي الأوعية التي خُبئت فيها معظم الكنوز، هل سمعتم عن «الفروة الذهبية»؟

-التي تتحدث عنها أسطورة «جيسون»؟

-نعم يا «سنيور مدحت»، أنت قلت أسطورة، يعني أنها محض خيال.

-كلنا يعرف أنها خرافة.

-جميل يا قبطان، ما رأيك في أني قرأت أن هناك من العرب من يقدم طرحًا

اليوم مفاده أن هذه الفروة موجودة، ويدعو للبحث عنها.

-كيف أيها القس؟!

-أقول لك يا آنسة «فريدة»، تذكرون قصة «قابيل» و«هابيل» والقربانين التي قدماها؟

-أجل.

-يُقال إن الرب تقبل قربان «هابيل»، الكبش الكبير، ورفعه إلى السماء حيث لا شيخوخة ولا موت، عاد الرب وأنزله ليفدي به «إسحاق».

-تقصد «إسماعيل»؟!

-«إسحاق».. «إسماعيل»، ليس هذا هو المهم الآن يا «سنيورة فريدة»، لنقُل ليفدي به ابن «إبراهيم».

-هذا أفضل.

-ذهب اللحم الحنيذ وبقيت الفروة التي تحولت بعد ذلك إلى الفروة الذهبية، إكرامًا للكبش الذي نزل من جنة عدن ليذبحه «إبراهيم» بيده.

-سمعت أن هذا الكبش رعى في الجنة أربعين خريفًا( )، لكن هذا الأمر غير منطقي.

-أرأيتم؟! سردت القصة لأسمع هذه الجملة التي نطق بها السيد «علاء» لتوه.

-بمعنى؟

-بمعنى يا قبطان أن الناس هم من يخلقون الوهم ويتوهمون الخرافة، امزج حقيقة صغيرة بوهم كبير تخلق قصة مشوقة.

-لا أحب لفظة «تخلق» تلك.

-حسنا أيها الكاتب الموهوب، وماذا تفعل أنت في رواياتك غير ذلك؟! يمكنني أن أحضر ورقة وأخط عليها مسارًا تخيليًّا للفروة بعد نزول الكبش من السماء، ثم أضع الورقة في قارورة أقوم بختمها وإلقائها في البحر.

-ماذا تقصد أيها القس؟ تريد أن تقول إننا...

-الموضوع ليس له علاقة بكم يا سيد «علاء»، أنا أتحدث في المطلق، كيف يصنع الناس الخرافة؟

عند هذه النقطة تدخل «سنيور أميرجو»، مسئول الإدارة المحلية، قائلًا موجهًا حديثه لـ«علاء»:

-نيافة القس يدعو للتثبت وعدم الانجرار والانخداع ليس إلا أيها السيد، هل سمعت عن «جزر سليمان»؟

-لا؟

-عندما تم اكتشاف هذه الجزر أُطلِق عليها هذا الاسم توهمًا بأنها مليئة بالذهب، ثم تبين أن هذا غير صحيح.

قاطعت «غادة» قائلة:

-أرى الآن وجهة نظرك أيها القس وأين تأخذنا.

-واسمحي لي يا سيدة «غادة» أن أزيدك من الشعر بيتًا؟

-تفضل.

-هل تعلمون أن هناك من المؤرخين من يرفض حملات الأطفال الصليبية سواء الألمانية أو الفرنسية ويعتبرها محض خرافة وأسطورة.

صاح المصريون في صوت واحد:

-معقولة؟!

زادت «فريدة»:

-واختفاء الأطفال؟! كيف يُفسر ذلك؟!

-هناك من قال بأن هؤلاء الأطفال هلكوا في مجاعة اجتاحت أوروبا، أو أن الطاعون حصدهم، ذهب البعض إلى الهجرة طلبًا للرزق أو أنه تم خطفهم

على يد عصابات تشتهي الاغتصاب والقتل.

عقبت «فريدة»:

-لا بالله عليك لا تقل ذلك.

-هذه مجرد أساطير لا سبيل إلى إثباتها أو دحضها تمامًا، مثل: «علاء الدين»، و«سندباد» في تراثكم، هناك أيضا من ألصق قصة الأطفال بحكاية «عازف المزمار».

-عازف المزمار!

قالها «علاء» متعجبًا.. واصل القس:

-نعم، يُحكى أن مدينة ألمانية انتشرت بها الجرذان بشكل مخيف فأكلت المحاصيل وشاركت الناس طعامهم وبيوتهم، رصدت البلدية ألف قطعة ذهبية لمن يخلصها من هذه الفئران، في يوم من الأيام جاء رجل وأخذ يعزف بمزماره فإذا بالجرذان تخرج من جحورها بالآلاف ثم تتجه نحو النهر وتلقي نفسها فيه، طالب العازف بالألف قطعة الذهبية، لكن البلدية حنثت بوعودها بعد أن عاينت زوال الخطر، أراد عازف المزمار أن ينتقم، في حلكة الليل أخذ يعزف نغمة مختلفة فإذا بآلاف الأطفال يخرجون كالمُنَوَّمين مغناطيسيا ويتجهون نحو منطقة جبلية ثم اختفوا بالكلية ولم يعد منهم

أحد.

تدخل «سنيور أميرجو» قائلًا:

-لقد كتب «جوته» عن هذه الأسطورة، لكننا هنا في البلدة نصدق بالطبع خروج حملات الأطفال الصليبية؛ لأنها تكسب المدينة أهمية سياحية، دعونا نعود لقصة الكنز.

علق «مدحت»:

-نعم، هذا أفضل.

تابع «أميرجو»:

-مخاوف القس «دميتريو» مفهومة ومبررة، لكننا هنا في مجلس المدينة نتمنى لو كان هذا الكنز موجودًا بالفعل تحت المذبح، نستطيع أن نقيم له معرضًا خاصًّا ونجتذب عددًا كبيرًا من السياح. على أي حال تناقشت والقس طويلًا قبل أن نجتمع بكم ووصلنا لحل وسط.

صاح المصريون في نفَس واحد:

-ما هو؟

-سنتقدم بطلب لمنطقة آثار «كاجلياري» بشراء أو تدبير جهاز كشف عن

المعادن والفلزات يستطيع العمل على مسافة تصل إلى خمسة أمتار وبدقة متناهية، لا يمكن أن تكون التربة قد ارتفعت أكثر من هذه الأمتار الخمسة.

-منطقي.

-فعلًا يا «سنيور علاء»، ولأن تكلفة الجهاز عالية، ولأنه يجب أن نمر ببعض الإجراءات الروتينية فنحن نتوقع إجراء التجربة في نهاية يونيو عقب الاحتفال بيوم القديس «بطرس». يسعدنا أن تكونوا حاضرين في هذا التوقيت، يمكننا أن نرسل لكم دعوة لحضور التجربة، وإذا تعذر ذلك فسنخبركم رسميًّا بنتيجتها، مع حفظ جميع حقوقكم طبقًا للقانون الإيطالي.

علق «مدحت»:

-شكرًا لك.

عقب «سنيور أميرجو»:

-بالمناسبة الجمعة المقبل ٣١ مايو سنفتح كنيسة «نوفيلي إنوتشنتي» أو «البراءة الجديدة» لاستضافة معرض للوحات الدينية، أتمنى أن تتمكنوا من الحضور حتى تعاينوا الكنيسة من الداخل.

-هذا أمر يسرنا بكل تأكيد.

(٢٣)

بهذه الكلمات أنهت «فريدة» هذه الجلسة التي شابها التشويق والتوتر. عاد الأصدقاء الأربعة إلى غرفهم بين الأمل والرجاء. لم يتكلموا كثيرا تلك الليلة. اكتفى كل منهم باجترار ذكرياته عن الرقعة الجلدية.

القضية بالنسبة لهم لم تكن الكنز في حد ذاته ولا المال؛ القضية هي الإحساس بالنجاح والإنجاز. تلك اللحظة الفريدة التي شعر بها «أرمسترونج» حين وضع قدمه على القمر، تلك اللحظة التي توقف عندها الزمن حين بلغ «إدموند هيلاري» قمة «إيفرست» وحين وصل «أمندسن» إلى القطب الجنوبي وحين سقطت التفاحة أمام ناظري «نيوتن».

المشكلة في حالتهم أنهم لا يتعاملون مع ظاهرة علمية أو فيزيائية؛ إنهم يتعاملون مع التاريخ، والتاريخ، كما قال عنه «نابليون»، مجموعة من الأكاذيب اتفق الناس على تصديقها. وحتى لو حذفنا عبارة «نابليون» تلك

لقسوتها، فما زال التاريخ يعج بكثير من الخلط والدس والزيف.

تحوَّل الكنز في نظرهم إلى نوع من التحدي. حتى «غادة» التي نظرت إلى الأمر في البداية من الجانب المادي اختلفت نظرتها الآن حيال الأمر برمته. كان القس مصيبا حين تحدث عن «كراسوس» و«مايداس». لقد أخبرها «علاء» أيضا أن الذهب الذي كنزه «المستعصم» لم ينفعه حين شعر بالجوع فجاءه التتاري «هولاكو» بطبق عليه سبائك من التبر قائلا: «كل!».

ثم إن القارورة قد منحتهم ما هو أهم من الكنز. استعادت «غادة» زوجها وزواجها. نال «علاء» روايته بعد أن ظن أن أفكاره قد يبست. قرر «مدحت» العودة للبحر بعد طول جفاء. نفضت «فريدة» عنها تراب الإحباط وانبلج صبحها بكيان أنثوي متجدد.

هل تعرف هذا الشعور حين تمكث في مدينة مزدحمة سريعة الإيقاع عقدا أو يزيد ثم تجد نفسك فجأة في صحراء مترامية أو بحر مفتوح أو ثلوج بيضاء ممتدة أو براريّ شاسعة لا يحجب رؤيتك فيها شيء؟ هل تعرف هذا الشعور حين تتوقف عن القيادة في الحارة السريعة من الحياة فتفترش الأديم وتلتحف السماء وتظل تراقب النجوم حتى انبلاج الصباح؟ هذا هو التغير الذي شعر به أصدقاؤنا الأربعة.

في اليوم المحدد، كان المصريون الأربعة داخل الكنيسة يستمتعون بتفقد عمارتها ومشاهدة اللوحات المعروضة على صوت موسيقى كنسية جليلة. تنوعت اللوحات بين خلق آدم والعشاء الأخير وبرج بابل ويوحنا المعمدان في نهر الأردن والمسيح يحمل صليبه في طريق الآلام، لكن شقا كبيرا منها صَوَّر الأطفال وهم في طريقهم من شتى الأصقاع الفرنسية إلى ساحل المتوسط. إحداها كانت مستنسخة للوحة شهيرة رسمها الفرنسي «جوستاف دوريه» في القرن التاسع عشر عن حملات الأطفال.

من الغريب أن إحدى هذه اللوحات رسمت الأطفال وهم يمسكون بالآلات الموسيقية وينشدون على ألحانها بحمية وحماسة. لم يدُر بخَلَدهم في هذه اللحظة أن مصيرا تعيسا ينتظرهم في عرض البحر. من يتحمل وزر هؤلاء الأطفال الذين لم تتشكل عقولهم بعد؟ كم من الأرواح أُزهقت باسم الدين على مر العصور وفي جميع الملل؟! إن من دفع بهؤلاء الأطفال إلى الموت عام ١٢١٢ هو من يُفخِّخ أجسامهم اليوم ويجبرهم على حمل «الكلاشينكوف».

اصطف الأصدقاء الأربعة أمام المذبح ووقفوا هناك دون حراك. لمعت عيونهم وهم يتخيلون الحفرة التي تحوي الجماجم والجمجمة التي تضم الكنز. مسافة كبيرة قطعتها أذهانهم وأفكارهم واستنتاجاتهم حتى وصلوا

إلى هنا، من القدس إلى روما إلى طليطلة إلى دمشق إلى مكة إلى أديس أبابا إلى الإسكندرية إلى هنا. لا يفصلهم سوى بضع خطوات عن كنز سليمان، لكنهم عاجزون عن التقدم أكثر من ذلك.

تمنى «علاء» لو اخترع العلماء نظارة تُمكِّن الإنسان من رؤية ما وراء الحجب. وضع كف يده فوق كتف زوجته وضمها إليه قائلا:

-كيف أردت تسلق سور الكنيسة والتسلل داخلها ونبش المذبح؟!

قبَّلت «غادة» كفه وبادلته النظرة نفسها مجيبة:

-من أجل روايتك أفعل أي شيء.

من جانبه، حاول «مدحت» الالتصاق بـ«فريدة». لا بأس ببعض التحرش أحيانا. استقبلت «فريدة» الرسالة وتورد وجهها خجلا.

أخرجت «غادة» زجاجة مياه معدنية من حقيبتها. ما إن همت بالشرب حتى أحست برغبة في التقيؤ فسارعت إلى الخارج وفي إثرها أصدقاؤها. في مستشفى البلدة تم إجراء بعض التحاليل لـ«غادة» التي تبين أنها حامل. لم يستطِع «علاء» أن يتحكم في نفسه من الفرحة.

في المساء، أتى القس «دميتريو» إلى الفندق، حيث يقيم المصريون الأربعة،

ليطمئن على «غادة». قابل «مدحت» و«علاء» في مدخل الفندق وعلم منهما بحقيقة الأمر وقدم التهاني لـ«علاء». نظر إلى «مدحت» قائلا:

-العقبى لك أنت وصديقتك.

-ابتعت لها هذا الخاتم الألماس اليوم طلبا لخطبتها.

أخرج «مدحت» علبة صغيرة من جيبه وفتحها ليُري القس و«علاء» الخاتم. قال «علاء»:

-جميل جدًّا يا «مدحت». ألف مبروك.

هنأه القس «دميتريو» قائلا في ابتسامة:

-خاتم سليمان.

-ليته كان كذلك.

-ماذا عساك أن تفعل به؟! ماذا فعلت الثروة للإمبراطور الروماني «ماركوس كراسوس» حين صبوا الذهب المنصهر في حلقه؟! وماذا فعل الذهب للملك «مايداس» حين تحولت ابنته في هذه الأسطورة إلى تمثال من التبر؟!

-يُمكنني حل مشكلات العالم.

-يُهيَّأ لك. أحسب أن الخاتم لم يخرج بعدُ.

-تقصد من بطن السمكة؟!

-لا عليك. خاتم «بورشيا» أهم من خاتم سليمان.

-«بورشيا»؟!

-ولا عليك من هذا أيضا. المهم أنك حللت، أو بالأحرى أسهمت في حل عقدة سليمان، وها أنت تتهيأ لربط عقد النكاح.

-أجل يا سماحة القس. مفارقة لطيفة. نستخدم العبارة نفسها في العربية.

-الحقيقة، لقد وردت هذه العبارة في كتاب بالإنجليزية القديمة يتناول أسطورة القديسة «كاترين».

-صاحبة الدير المشهور في سيناء؟

-أجل. يعود تاريخ هذا الكتاب إلى عام ١٢٢٥.

-١٢٢٥؟! هذا الرقم من جديد!

-أجل. أتدري لماذا ضاع كنز سليمان بعد هذه الرحلة الطويلة في غياهب الزمن وحواضر المدن؟

-كلا.

-لأنه لم يقترن بالحب. ركابه كان الطمع، والطمع أيها الشاب المحترم من

الخطايا السبع المردية. الجشع رأسمال إبليس. العشق كنز أبينا آدم. رحلة طويلة حقا بها الحرب والمؤامرة والأنانية، وكل الأشياء التي تجعل من الحبكة رواية ناجحة، لكن ليس بها حب. أليس كذلك يا سيد «علاء»؟

-أجل. أصبت. إذا استثنينا قصة الحب التي جمعت «سليمان» بـ«بلقيس».

-اسمح لي بسؤال يا قبطان.

-تفضل يا نيافة القس.

-أيهما أهم بالنسبة لك في هذا الوقت: كنز مائدة سليمان أم هذا الخاتم الذي تحوز به قلب حبيبتك؟

رد «مدحت» من دون تردد:

-قلب «فريدة».

-وأنت يا سيد «علاء»، لو خُيِّرت بين الكنز والنطفة التي في أحشاء زوجتك؟

-الطفل عندي أهم شيء في الوجود.

-أحسبك تعرف أنك لو استثمرت في عقله بشكل طيب فربما غيَّر العالم؟

-أجل.

-ستدعه يعيش طفولته. لن تقول له كلاما لا يفهمه. لن تُضحي به على مذابح

المجد. لن تُفزِعه أو ترهبه. ستقف دوما بجانبه. ستكون سندا وعونا له.

-وسأحكي له يوما عن مغامرتنا التي أوصلتنا إلى هنا.

-جميل. قلت لي إن صداقتك بالقبطان «مدحت» حديثة؟

-نعم.

-لكنك تُجلها كثيرا وتنوي الحفاظ عليها.

-بالتأكيد. لو رُزقت بصبي سأسميه باسمه.

علق القس وهو يبتسم:

-نقول في الإيطالية: Chi trova un amico trova un tesoro، أي: من يجد صديقا يجد كنزا.

-صحيح.

-وردت لفظة «الكنز/ الكنوز» ست مرات في سفر أمثال الملك سليمان، صاحب المائدة. لم يُشِر أي منها إلى الدلالة الحرفية للكلمة بمعنى المال والذهب والفضة.

-كيف؟

-يقول يا «سنيور علاء»: «في بيت الصديق كنز عظيم وفي داخل الأشرار كدر/ القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هَم/ كنز مُشتهى وزيت في بيت الحكيم، أما الرجل الجاهل فيتلفه/ كنوز الشر لا تنفع، أما البر فيُنجي من الموت/ جمع الكنوز بلسان كاذب هو بخار مطرود لطالبي الموت/ إن دعوت المعرفة ورفعت صوتك إلى الفهم. إن طلبتها وبحثت عنها كالكنوز فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله».

-تقصد أن الكنوز الحقيقية هي الحكمة والمعرفة والبر ومخافة الله؟!

-أجل يا قبطان، ناهيك عن الحب. كنز يسوع الحقيقي هو المحبة والمسرة والرحمة. من أجل ذلك أشار إلى أن مملكته وكنزه في السماء وليس على الأرض. من أجل ذلك قال: «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا»( ). كنزك هو قلبك. ابحث عن الكنز في قلبك. ابحث عن الكنز فيمن حولك. كنزك في خُلقك وبرك وحلمك وعطفك. كنزك في رضاك وقناعتك وصبرك. افتح كنزك وانثر منه على الناس. أعطِ منه يكثر وأنفق منه يزِد.

ودَّع القس الشابين وانصرف لحال سبيله قائلا:

-انقلا تحياتي للسيدتين الكريمتين.

بعد رحيل القس أطرق «علاء» مفكرا ثم تمتم:

-«كنزك هو قلبك». رائع.. سأختار هذه العبارة عنوانا لروايتي. لقد كنت حائرا بين أكثر من عنوان. ما رأيك؟

في هذه اللحظة لاحت «فريدة» على درج الفندق. أجاب «مدحت» وهو يجهز في شغف وتوتر العلبة التي تحوي الخاتم:

-الحب رزق.

أضاف متمتما وهو يحدق في «فريدة»:

-لغزك هو كنزك، وكنزك هو قلبك، وقلبك هو كنزك.

-ماذا قلت يا «مدحت»؟!

-لا شيء يا «علاء»، فقط سألت: هل ستنتظر آخر يونيو لتضع نهاية لروايتك؟

-ليس ضروريا يا «مدحت». أعتقد أنه يتعيَّن عليَّ أن أنهيها عند هذا الحد. «كنزك هو قلبك». عنوان جميل، أليس كذلك؟

نظر «مدحت» إلى «فريدة» التي يشع وجهها نورا ويفيض جسمها أنوثة في الفستان «البوستاج» الرائع، وشعرها بلون الليل البهيم الذي انسدل على كتفيها وكأنه طريق الحرير.

أعاد «علاء» سؤاله لينتشل «مدحت» من شروده:

-«مدحت»! سألتك عن العنوان، «كنزك هو قلبك». جميل، أليس كذلك؟

عقب «مدحت» قائلا بصوت خفيض وقد تسمرت عيناه على «فريدة»:

- فعلا.

المؤلف في سطور:

- أستاذ الأدب الإنجليزي «المنتدب» بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

الأعمال المنشورة:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- Enhance your English Vocabulary، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.

- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا (ترجمة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.

- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اللغة الإنجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- مختارات من الأدب الأنجلو - أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- اللغة العالمية الموحدة.. مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.

- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.

- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢- ١٩٤٥، آراؤهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، ٢٠١١.

- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوى للنشر، بيروت، ٢٠١٢.

- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- الحياة في البلاط الملكي المصري (للمؤرخ الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- بين الحب والحرب (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- أقفال العشق (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٤.

- رحلة حاج إلى مكة (للكاتب الإنجليزي آرثر ويفل)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٥.

هوامش الرواية:

( ) Travel.

( ) Edna St. Vincent, ١٨٩٢ - ١٩٥٠.

( ) Angels and Demons.

( ) Tom Hanks.

( ) The Illuminati.

( ) Stevie Smith (١٩٠٣ – ١٩٧١), Not Waving but Drowning

( ) C.A. Mercer, The Garden of Memories. ترجمة: محمد عزب .

( ) Richmal Crompton (١٨٩٠ - ١٩٦٩), The Christmas Present
ترجمة: محمد عزب ..

( ) Paracas Skulls.

( ) Starchild Skull.

( ) آية ٢٤٨.

( ) النمل: ٤٤.

( ) Rennes - le - Château.

( ) Oak Island.

( ) Rosslyn.

( ) Henry Haggard.

( ) King Solomon›s Mines.

( ) 4shared.

( ) Kate Chopin (١٨٥١ - ١٩٠٤), Regret.ترجمة: محمد عزب .

( ) Roderick.

( ) Titus.

( ) البقرة: ٢٥٩.

( ) رواه أبو هريرة، وأورده الترمذي تحت رقم ٣١٨٧.

( ) Edward Gibbon.

( ) Alaric I, ٣٧٠ – ٤١٠.

( ) Sindered.

( ) Berenice.

( ) Egilon.

( ) دار الكتب المصرية، ١٩٢٤، ج ١، ص ١٠٥.

( ) رواه عبد الله بن عمرو بن العاص.

( ) أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن جامع

الهري الشيبي العبدري (بنو عبد الدار).

( ) Samuel Johnson, Rasselas, ١٧٥٩.

( ) Phaistos Disk.

( ) Shroud of Turin.

( ) Nazca Lines.

( ) Sedelik Church.

( ) Crop circles.

( ) Stonehenge.

( ) Philippe de Mezzieres.

( ) Graham Hancock.

( ) Gudit.

( ) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص ١٦٥.

( ) المقتطف، مجلد ٦٥، سنة ١٩٢٤، نقلا عن كتاب «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ.

( ) Marcus Crassus, ١١١ – ٥٣ B.C.

( ) سفر الملوك الأول، ١٤:٢٥- ٢٨.

( ) Gebre Mesqel Lalibela, ١١٨١ – ١٢٢١.

( ) Masqal Kibra.

( ) منطقتان ذكرهما الكتاب المقدس، جلبت منهما سفن سليمان الحكيم الذهب، ولا يُعرف مكانهما الآن على وجه التحديد.

( ) محافظة في السعودية بالقرب من المدينة المنورة، بدأ تعدين الذهب فيها عام ٩٦١ قبل الميلاد، وهي الفترة نفسها تقريبا التي عاش فيها نبي الله سليمان.

( ) Gordian Knot.

( ) Innocent III, ١١٦٠ - ١٢١٦.

( ) ٢: ١، ٢.

( ) Petrine Succession.

( ) مت ١٦:٢٨.

( ) Ostica.

( ) Carlo Forte.

( ) Gregory IX.

( ) Sylvester II, ٩٤٦- ١٠٠٣.

( ) Cathars.

( ) Toulouse.

( ) Saint Dominic, ١١٧٠ - ١٢٢١.

((فعلًا تم له ذلك وجلس «أونوروس» على المقعد البابوي Honorius III الفترة من ١٢١٦ حتى ١٢٢٧م.

( ) Dandolo.

( ) Godfrey.

( ) Baldwin.

( ) Urbanus II.

( ) Eleanora.

( ) Francis of Assisi, ١١٨١- ١٢٢٦.

( ) Peter Waldo, ١١٤٠ - ١٢١٨.

( ) Peter, the hermit.

( ) Walter, the penniless.

( ) Cloyes.

( ) Vincent of Beauvais, ١١٩٠ - ١٢٦٤.

( ) Conrad of Monfort.

( ) ابن الرومية، توفى عام ١٢٣٩م.

( ) William Porcus & Hugo Ferreus.

( ) Tagliafico.

( ) Cagliari.

( ) Limbania Pigpen.

( ) Newton Perkins.

( ) يوسف بن ماتيتياهو.

( ) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe.

( ) Cacassone.

( ) Basento.

( ) Theodoric .٤٥٤ – ٥٢٦ .

( ) Ravenna.

( ) Shem Shemaforash.

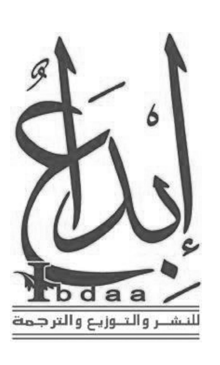
( ) Siliceo.

( ) Mt. Zulema.

( ) Miguel Cervantes.

( ) Don Quixote.

((رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس.


Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة